دراسات في الإسلام

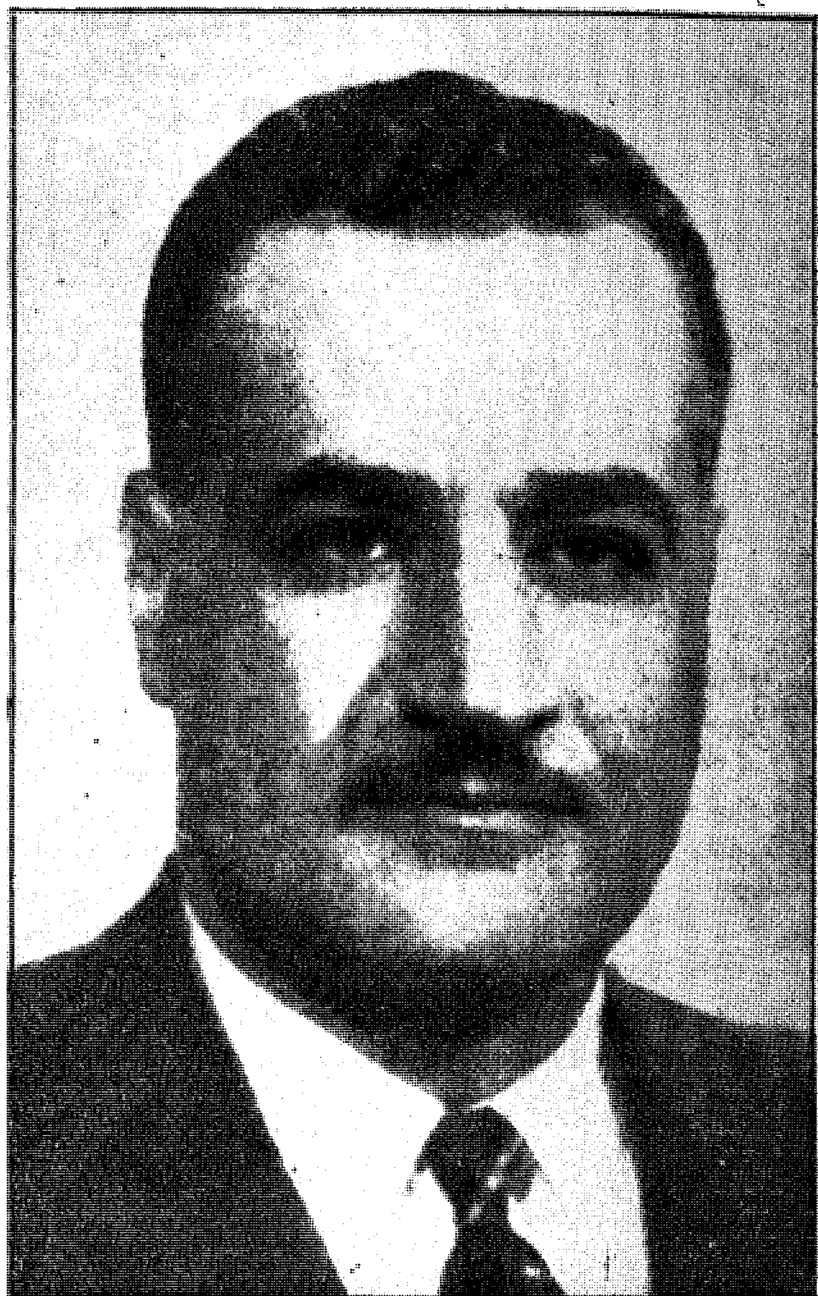
التربية في الإسلام

محمد عطية الإبراشي

٢

29

يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
بوزارة الأوقاف



بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

تمهيد

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . وبعد فلايستطيع احد من المربين والمؤرخين أن ينكر أن التربية الاسلامية هي الأساس المتين لحضارة المسلمين ، والمثل العليا في تلك التربية تتفق مع الاتجاهات الحديثة في عالم التربية اليوم ، فقد قدس الاسلام العلم والعلماء ، وسما بالعلم الى درجة العبادة ، وعنى العناية التامة بجميع أنواع التربية ، وخاصة التربية الروحية والدينية والخلقية ، ونادى بالحرية والمساواة وتكافؤ الفرص بين الأغنياء والفقراء في التعليم ، وقضى على نظام الطبقات ، وفرض طلب العلم على كل مسلم ومسلمة ، وأعطاهما كل وسيلة للتعليم ، اذا وجدت لديهما الرغبة في العلم والاقبال عليه .

وقد فتحت المساجد والمعاهد ، ودور العلم والحكمة ، ودور الكتب ، والحلقات الدراسية ، والمنتديات الادبية والعلمية أمام الطلاب للتعلم والدراسة والبحث . وقدمت اليهم الدولة كل ما يحتاجون اليه ، من طعام ومسكن وعلاج ومساعدات مالية ، لتمكنهم من المعيشة في الحياة ، والتفرغ لطلب العلم .

وانا لا نفخر اذا قلنا ان مبادىء التربية الحديثة التى نادينا بها في منتصف القرن العشرين ــ ولم تستطع الدولة المتمدنة تنفيذها كلها حتى اليوم ــ قد روعيت ونفذت فى التربية الاسلامية ، فى عصورها الذهبية ، قبل أن تخلق التربية الحديثة بمئات السنين .

ومن تلك المبادىء المثالية فى التربية الاسلامية : التربية الاستقلالية ، والاعتماد على النفس فى التعلم، والحرية والديمقراطية فى التعليم ، ونظام التعليم الفردى ، ومراعاة الفروق الفردية بين الأطفال فى التعليم والتدريس ، وملاحظة الميول والاستعدادات للمتعلمين ، واختبار ذكائهم ، ومخاطبتهم على قدر عقولهم ، وحسن معاملتهم ، والرفق بهم ، والعناية بالتربية الخلقية ، وتشجيع الرحلات العلمية ، والاهتمام بالخطابة والمناظرات ، والتربية اللسانية، والاكثار من دور الكتب ، وتزويدها بكل ما يمكن من الكتب القيمة ، والمراجع النادرة ، وتشجيع الطلاب على الانتفاع بما فيها من ذخائر نفيسة، والمثابرة على الدراسة والبحث ، والتعليم من المهد الى اللحد .

ولا تعجب اذا سمعت أن وظيفة المعيد التى نجدها اليوم فى الكليات والجامعات كانت متبعة فى المعاهد الاسلامية فى عصورها الذهبية وأن نظام الجامعات الشعبية مقتبس من التربية الاسلامية، فقد كان طلب العلم غير مقيد بشروط استعمارية فولاذية ، وأعمار محدودة ، وشهادات معينة ، ودرجات معدودة ، وكانت أبواب المساجد والمعاهد الدراسية مفتوحة لجميع الراغبين فى العلم والتعلم .

ولكن يؤسفنا أن نقول ان المؤرخين والادباء والفقهاء وفلاسفة الاسلام لم يعنوا فى القرون الوسطى بالتآليف فى التربية الاسلامية

العناية التى تستحقها ، فى حين أنهم كتبوا وأسهبوا ، وأجادوا الكتابة عن الحضارة الاسلامية ، والانتصارات الحربية ، والشئون الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية فى الاسلام • فقد تقرأ كتابا عن نظام الملك ، أو عن صلاح الدين الأيوبى ، فلا تجد الا قليلا عما أنشأه هذا أو ذاك من المدارس ودور العلم ، أو قام به من اصلاحات فى التربية والتعليم ، فى الوقت الذى تجد فيه كتابة مسهبة عن تاريخ حياة كل منهما ، وأعماله السياسية ، وحروبه العسكرية • لهذا كله يجد الباحث صعوبة كبيرة اذا أراد أن يكتب عن التربية فى الاسلام • فقد يقرأ كثيرا من الكتب العربية والادبية والتاريخية والسياسية القديمة ، فلا يجد فيها الا فصولا متفرقة، وأبوابا محدودة ، ونصائح مبعثرة ، ورسائل تتعلق بالمعلم والمتعلم أو تتصل من قريب أو بعيد بالتربية والتعليم • وقد يحتاج الى كثير من المراجع لكتابة أى موضوع من موضوعات التربية الاسلامية •

ومع هذا لا يستطيع أحد أن ينكر أن للعرب والمسلمين كل الفضل على الغرب والغربيين ، وأن للعلوم العربية والحضارة الاسلامية أثرا كبيرا فى النهضة الاوروبية الحالية ، فقد نقلت العلوم والثقافة العربية ، والمدنية الاسلامية والفنون الشرقية ــ بعد أن ازدهرت وارتقت ، ونضجت وأثمرت على أيدى علماء الاسلام وفلاسفته ــ الى أوروبا فى عصورها المظلمة ، فى القرون الوسطى؛ فللعرب والاسلام والشرق قديما كل الفضل فى نشر العلم والثقافة، والحضارة والفن فى الغرب وأوروبا الحالية • فقد كان للتربية الاسلامية أكبر الأثر فى النهوض بكل أنواع التربية بما اقتبس منها من المبادىء المثالية فى الدين والاخلاق ، ومراعاة النواحى

الانسانية والاجتماعية والتعاونية ، كالاخاء والحرية والمساواةوالعدالة وتكافؤ الفرص ، والوحدة الروحية بين المسلمين في الامبراطورية الإسلامية العظيمة • ولا عجب ، فعلى هذه الأسس القوية، والقواعد الذهبية أسست التربية الاسلامية في عصورها الاولى •

وقد راعيت في تأليف هذا الكتاب المثل العليا التي ينادى بهـا دائما قائدنا الملهمالمحبوب **الرئيس جمال عبد الناصر • وكان للسيد وزير الاوقاف ذي القلب المؤمن أحمد عبد الله طعيمة الفضـــل في احياء تلك السلسلة الثقافية من الكتب الاسلامية** ، ومنها هـــذا الكتاب ، وهو : « الموجز في التربية الاسلامية » ويليه كتاب آخــر مفصل يشمل معاهد التربية الاسلامية ومناهجها ، والتربية الخلقية في الاسلام ، والعقوبة في الاسلام ، وعلاقة التربية الاســـلامية بالتربية الحديثة •

وأعتقد تمام الاعتقاد أن التربية الاسلامية ستنالما تستحقه من العناية **في هذا العهد الميمون • وبهذا المجهود المتواضع ارجو أن أكون قد قمت ببعض الواجب نحو الاسلام ، وأن يجد القارىء في هذا الكتاب ما يشبع رغبته ، ويفتح سبيل البحث أمامه ، والله أسأل ان يعيد للاسلام مجده الماضي ، ومبادئه المثالية ، وحضارته الخالدة ، انه سميع مجيب •**

المؤلف

الفصل الأول

اغراض التربية الاسلامية

١ ـ ان التربية الخلقية هى روح التربية الاسلامية ·

فقد اجمع فلاسفة الاسلام على أن التربية الخلقيـــة هى روح التربية الاسلامية ، والوصول الى الخلق الكامل هو الغرض الحقيقى من التربية · وليس معنى هذا أن نقلل العناية بالتربية الجسمية أو العقلية أو العلمية أو العملية ، بل معناه أن نعنى بالتربية الخلقية كما نعنى بالأنواع الأخرى من التربية ، فالطفل فى حاجة الى قوة فى الجسم والعقل، والعلم والعمل ، وتربية الخلق والوجدان ، والارادة والذوق والشخصية ·

وقد اتفق علماء التربية الاسلامية على أنه ليس الغرض من التربية والتعليم حشـــو أذهان المتعلمين بالمعلومات ، وتعليمهم من المواد الدراسية مالم يعلموا ، بل الغرض أن نهذب أخلاقهم ، ونربى أرواحهم ، ونبث فيهم الفضيلة ، ونعودهم الآداب السامية، ونعدهم لحياة طاهرة ، كلها اخلاص وطهارة · فالغرض الأول والأسمى من التربية الاسلامية تهذيب الخلق ، وتربية الروح ، وكل درس يجب أن يكون درس أخلاق ، وكل معلم يجب أن يراعى الاخلاق · وكل مؤدب يجب أن يفكر فى الأخلاق الدينية قبل أى شىء آخـــــر · والاخلاق الدينية هى الاخلاق المثالية الكاملة ، والخلق النبيل عماد

التربية فى الاسلام . ويرى الغزالى : أن الغرض من التربيةالتقرب الى الله ، دون الرياسة والمباهاة ، وألا يقصد المتعلم بالتعلم الرياسة والمال والجاه ، ومجاراة السفهاء ، ومباهاة الاقران ، وهو لايخرج عن التربية الخلقية .

ومن الممكن أن نلخص الغرض الاساسى من التربية الاسلامية فى كلمة واحدة هى : « الفضيلة » .

٢ ـ العناية بالدين والدنيا معا :

لم يكن أفق الاسلام ضيقا فى النظر الى أغراض التربية ، فلم يقصر التربية على الناحية الدينية ، ولم يقصرها على التربية الدنيوية بل نادى الرسول الكريم حاثا كل فرد من الامة الاسلامية بالعمل لدينه ودنياه معا ، حيث قال : « **اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا** » . فلم يفكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الدنيا وحدها ، أو الدين وحده ولكنه فكر فى العمل لهما معا ، بدون اهمال للعالم الدنيوى أو العالم الدينى .

٣ ـ العناية بالنواحى النفعية :

كما عنيت التربية الاسلامية بالنواحى الدينية والخلقية والروحية فى التربية والتعليم ، لم تهمل العناية بالنواحى النفعية فى معاهدها ومناهجها . ويتضح هذا الغرض **من كتاب عمر بن الخطاب** رضى الله عنه الى الولاة : « **أما بعد ، فعلموا أولادكم السباحة ، والفروسية ، ورووهم ما سار من المثل ، وما حسن من الشعر** ». **فعمر يأمر بتعليم الاولاد السباحة والعوم ، والفروسية والرياضه البدنية** ، والمهارة الحربية ، **والعناية باللغة العربية ، ورواية الامثال**

السائرة، والشعر الحسن ، وانأثر علماء الاسلام فى النهضةالعلمية لايستطيع أن ينكره الا كل مكابر متعصب ، قال (مونرو) فى كتابه « تاريخ التربية » : » ففى الطب والجراحة وعلم العقاقير ، والفلك ، وعلم وظائف الاعضاء ـ وصل المسلمون الى اختراعات هامة،واخترعوا ساعة البندول ... وعلموا أوروبا استعمال البوصلة والبارود » .

فالتربية الاسلامية لم تكن كلها دينية وخلقية وروحية ، ولكن هذه الناحية كانت مسيطرة على الناحية النفعية ، ولم تكن فى أساسها مادية ، بل كانت المادة أو كسب الرزق أمرا عرضيا فى الحياة ، لم يقصد الكسب لذاته ، بل كان أمرا ثانويا فى التعليم .

وقد كان من رأى الفارابى وابن سينا واخوان الصفا أن الكمال الانسانى لا يتحقق الا بالتوفيق بين الدين والعلم .

٤ ـ دراسة العلم لذات العلم :

كان طلاب العلم من المسلمين يدرسونه لذاته ، فهو فى نظرهم ألذ شيء فى الحياة والانسان مجب للاطلاع بفطرته ، **لهـــذا عنى فلاسفة الاسلام بدراسة كثير من العلوم والآداب والفنون ، ليشبعوا مالديه من ميل فطرى الى حب الاطلاع والمعرفة . وهذه هى التربية المثالية حيث يدرس الطالب العلم لذات العلم ، والأدب لذات الأدب والفن لذات الفن ، لأن فيها لذة علمية أو أدبية أو فنية لا نظير لها .**
قال الحاج خليفة فى (كشف الظنـــون) « والعلم ألذ الاشـــياء وأفضلها ... » وقال فى موضوع آخر : « ليس الغرض من الدرس تحصيل الرزق فى هذه الدنيا ، ولكن الغرض الوصول الى الحقيقة ، وتقوية الخلق » ، أى الوصول الى الحقيقة العلمية ، والخلق الكامل .

فالتربية الاسلامية كانت مثالية ، تطالب بالعلم لما فيه من لذة روحية ، وللوصول الى الحقائق العلمية ، والاخلاق النبيلة ، وان من ينظر الى ما خلفه المسلمون من تراث علمى وأدبى ، ودينى وفنى يجد أمامه ثروة خالدة لانظير لهافى العالم كله ، تدل على شدة تعلقهم بالعلم لذاته ، والأدب لذاته ، والفن لذاته ، وليس معنى هذا أنهم أهملوا التعلم لكسب الرزق كلية • ويتبين هذا من الغرض التالى :

٥ ـ التعليم المهنى والفنى والصناعى لكسب الرزق :

لم تهمل التربية الاسلامية اعداد كل فرد لكسب رزقه فى الحياة ، بدراسة بعض المهن والفنون والصناعات ، والتدرب عليها ويظهر هذا الغرض واضحا من قول ابن سينا : **اذا فرغ الصبى من تعلم القرآن وحفظ أصول اللغة نظر عند ذلك الى ما يراد أن تكون صناعته ، فيوجه لطريقه** ••• ويعد اعدادا مهنيا أو فنيا أو صناعيا حتى يجيد مهنة من المهن ، أو فنا من الفنون ، أو صناعة من الصناعات حتى يتمكن من كسب رزقه ، ويحيا حياة شريفة ، مع المحافظة على الناحية الروحية والدينية ، فالتربية الاسلامية كانت خلقية غالبا ، ولكنها لم تهمل اعداد الفرد للحياة ، وكسب العيش والرزق ولم تنس تربية الجسم والعقل والقلب ، والوجدان والارادة والذوق واليد واللسان والشخصية •

الفصل الثانى

العلم والتعليم فى نظر الاسلام

الدين الاسلامى يأمر بتعميم التعليم :

ان الدين الاسلامى دين علم ونور ، لا دين جهالة وظلمة ؛ فأول آية نزل بها الوحى فيها أمر للرسول بالقراءة وتكرار لذلك الأمر ، وتنويه بشأن العلم والتعليم ، نلمسه فى اسناد التعليم الى الله تعالى « **اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان مالم يعلم** . » وقوله تعالى مخاطبا نبيه محمدا « **وقل رب زدنى علما** » وقوله « **شهد الله أنه لااله الا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط** » فبدأ عز وجل بنفسه ، ثم ثنى بالملائكة ، ثم ثلث بأهل العلم . وناهيك بهذا شرفا وفضلا ونبلا . قال تعالى : « **تلك الأمثال نضربها للناس ، وما يعقلها الا العالمون** » أى ولا يفهمها الا العلماء المثقفون .

وفى مواطن كثيرة نوه القرآن الكريم بشأن العلماء ، وما لهم من منزلة رفيعة ، ومكانة سامية ، فقال «**قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون** » وقال : « **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات** »

فالعلم مقدس فى نظر الاسلام ، وهو أسمى شىء فى الحياة لدى المسلمين . وللعلماء العاملين منزلة فى الاسلام تلى منزلة الانبياء . قال الرسول الكريم : « **العلماء ورثة الأنبياء** » فرتبة العلماء العاملين تلى رتبة الانبياء .. وقد قيل : ان العلماء يشفعون للناس يوم القيامة بعد الانبياء . قال صلى الله عليه وسلم: «**ان مداد العلماء لخير من دماء الشهداء** » .

وقد دعا الرسول الكريم الى التعليم وأوجبه ، فقال « **علموا أولادكم ، فانهم مخلوقون لزمان غير زمانكم** » . ولم يفرق الاسلام فى طلب العلم بين الابناء والبنات ؛ فقد قال رسول الله صلى الله عليه سلم « **طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة** » من غير تفرقة بينهما ، فالدين الاسلامى يطالب المسلم والمسلمة بالتعلم وطلب العلم ، والعمل به ، والاجتهاد فى نشره .

ولم يقف الاسلام عند الدعوة الى نشر العلم والتعليم فحسب ؛ بل دعا الى الاستمرار في طلب العلم والتعلم ، والبحث والاطلاع ، فقال الرسول « **لايزال الرجل عالما ما طلب العلم ، فاذا ظن أنه قد علم فقد جهل** » . وقال : « **يستغفر للعالم ما فى السموات والارض**» . قال الغزالى تعليقا على هذا الحديث : وأى منصب يزيد على منصب من تشتغل ملائكة السموات والارض بالاستغفار له ؟ ، فالعالم مشغول بنفسه ، والملائكة مشغولون بالاستغفار له .

وكان صلى الله عليه وسلم يشجع التعليم بعمله وقوله ؛ فقد كان يطلق سراح الأسرى المتعلمين من الكفار اذا علموا بعض المسلمين القراءة والكتابة ، حرصا منه صلى الله عليه وسلم على ذيوع التعليم

ونشره بـين جمهـرة المسلمين • ولم يفته أن يعطى المرأة حظها ونصـيبها فى تعلم القراءة والكتابة ، فقد سأل الشفاة العدوية أن تقوم بتعليم زوجه السيدة حفصة القراءة والكتابة ، ضاربا بذلك أحسن الأمثال لأمته فى وجوب تعليم الفتيات والبنات •

وقد خرج صلى الله عليه وسلم ذات يوم فرأى مجلسين أحـدهما فيه قوم يدعون الله عز وجل ، ويرغبون اليه ، وفى الثانى جماعة يعلمون الناس ، فقال : « **أما هؤلاء فيسألون الله ، فان شـاء أعطاهم ، وان شاء منعهم ، وأما هؤلاء فيعلمون الناس ، وانما بعثت معلما** » • **ثم عدل اليهم ، وجلس معهم** • وبذلك ضرب النبى لنـا خير مثل فى تشجيـع العـلم ، ونشر التعليم ، والاشادة بفضل المعلمين • وحسـبك أن العلم فى نظر الرسول الكريم قـوام الدنيا ، وقوام الدين ، حيث قال : « **من أراد الدنيـا فعليه بالعلم ، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ، ومن أرادهما معا فعليه بالعلم** » • وقال أيضا : « **الناس رجلان ، عالم ومتعلم ، ولا خير فيما سواهما** » وقال صلى الله عليه وسلم : « **لموت قبيـلة أيسر من موت عالم** • » وقال : « **فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب** » وقال : « **من سلك طريقا يطلب فيه علما سـلك الله به طريقا الى الجنة** » • وقال : « **ان الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع** » • وكلها أحاديث تشيد بفضل العلماء العاملين ، وتحث على طلب العلم ، وتدل على أن الاسلام يطالب بالتعليم ونشر العـلم ، والتخلص من الجهل والامية •

وفى الأثر : أفضل الناس المؤمن العـالم ، الذى ان احتيج اليه نفع ، وان استغنى عنه أغنى نفسه •

وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه لكميل : يا كميل ، العلم خير من المال ، العلم يحرسك ، وأنت تحرس المال ، والعلم حاكم ، والمال محكوم عليه ، والمال تنقصه النفقة ، والعلم يزكو بالانفاق .

وقال أيضا : « العالم أفضـــــل من الصائم القائم المجاهد ، وقال نظمـــــا :

ما الفخر الا لأهل العلم انهـم على الهدى لمن اســتهدى أدلاء
وقدر كل امرىء ماكان يحسنه والجاهلون لأهل العلم أعداء
ففز بعـــــلم تعش حيابه أبدا الناس موتى وأهل العلم أحياء

وقال أيضا ، وأشار الى صـــــدره : « ان ها هنا لعلوما جمة ، لو وجدت لها حملة » . وقد صدق رضى الله عنه ؛ فقلوب الابرار قبور الأسرار .

وقال عمر رضى الله عنه : يأيها الناس عليكم بالعـــلم ، فان لله سبحانه رداء يحبه ، فمن طلب بابا من العلم رداه الله عــز وجـــل بردائه . » ولا عجب ، فبالعلم تحيا القلوب بنور الحكمة ، كما تحيا الارض بوابل السماء .

وقال بعض الحكماء : اذا مات العالم بكاه الحوت فى الماء ، والطير فى الهواء ، ويفقد وجهه ، ولا ينسى ذكره . وقيل : كن عالمـــا أو متعلما أو مستمعا ولا تكن جاهلا فتهلك .

وقال الحسن رضى الله عنه **لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم . وهو يقصد أنهم بالتعليم يخرجون الناس من حد الحيوانية الى حــد الانسانية .**

وقيل تعلموا العلم ، فان تعــلمه لله خشية ، وطلبه عبــادة ، ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهـــاد ، وتعليمه من لا يعلمه صدقة ، وبذله لاهله قربة ، وهو الأنيس فى الوحـدة ، والصاحب فى الخلوة ، والدليل على الدين ، والمصبر على السراء والضراء ... والقريب عند الغرباء ، ومنار سبيل الجنة ، يرفـــع الله به أقواما فيجعلهم فى الخير قادة سادة ، هداة يقتدى بهم ، أدلة فى الخير ، تقتص آثارهم ، وترمق أفعــالهم ، وترغب الملائــكة فى خلتهم ، وبأجنحتها تمسحهم ، لأن العلم حياة القلوب ، ونور الأبصار ، به يبلغ الانسان منازل الأبرار ، وبه يطاع الله عز وجل ، وبه يعبد ، وبه يوحد ، وبه يمجد ، وبه توصل الأرحام ، يلهمه الســعداء ، ويحرمه الأشقياء .

وقد خير حكيم من كبار الحكماء بين المال والملك والعلم ، فاختار العلم ، فأعطى الملك والمال لاختياره العلم .

وقد رأى ابن مسكويه والغزالى — وهما من علماء الاسلام — أن العلم غذاء للروح ، وغذاء للعقل ، وعد ابن خلدون العــلم والتعليم طبيعيا فى العمران البشرى ، وقال : « ان الانسان قــد شاركته جميع الحيوانات فى حيوانيته من الحس والحركة والغذاء .. وغير ذلك ، وانمــا تميز عنها بالفكر .. وعن هــذا الفكر تنشأ العلوم والصناعات » .

وكان الخلفاء من المسلمين يجلون الأدباء والعــلماء ، ويغدقون عليهم المنح والعطايا ، ومما يدل على اجلالهم للعلم أنهم كانوا يحثون أبناءهم على تلقيه ، ويرغبونهم فيه ، فهذا عبـــد الملك بن مروان يوصى أبناءه فيقول : « يابنى تعلموا العلم ، فان كنتم سادة فقتم

وان كنتم وسطا سدتم ، وان كنتم ســـوقة عشتم » • فالتعليم فى نظره يجعل السادة فائقين ، ويصـــير المتوسطين ســـادة ، ويمكن السوقة من كسب العيش والحياة •

وذاك مصعب بن الزبير يقول لابنه : « تعلم العلم ، فان لم يكن لك جمال كان لك جمالا ، وان لم يكن لك مال كان لك مالا » • فالعلم زينة من لا زينة له ، ومال من لا مال له •

وذلكم الرشيد يعهد الى ســـيبويه بتأديب ابنه المأمون ، والى الأحمر – وهو على بن الحسن – بتأديب ابنه الامين • ومن وصيته التى يجب على المربين أن يتخـذوها نبراسا لهم فى تربية أبنائهم : « يا أحمر ؛ ان أمير المؤمنين قد دفع اليك مهجة نفسه ، وثمـــرة قلبه ، فصير يدك عليه مبسوطة ، وطاعته لك واجبة ، فكن له بحيث وضعك أمـــير المؤمنين ، أقرئه القرآن ، وعـــرفه الأخبار ، ورِوه الأشعار ، وعلمه السنن ، وبصره بمواقع الكلام وبدئه ، وامنعه من الضحك الا فى أوقاته ، وخذه بتعظيم بنى هاشم اذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القـــواد اذا حضروا مجلسه ، ولا تمرن بـــك ساعة الا وأنت مغتنم فيها فائدة تفيده اياها ، من غير أن تحزنه ، فتميت ذهنه ، ولا تمعن فى مسامحته ؛ فيستحلى الفـــراغ ويألفه ، وقومه ما استعطت بالقرب والملاينة ، فان أباهما فعليك بالشدة والغلظة • »

وفى هذه الوصية تتمثل الحكمة وسداد الرأى ؛ فهى تحتـــوى منهجا من أحسن المناهج الدراسية للمعاهد الثانوية ؛ فمن قـــراءة للقرآن الكريم ، الى دراسة للتاريخ والاخبـــار ، ومن رواية للأدب والأشعار ، الى تعلم السنن ، ودراسة اللغة وبلاغتها ، ومن تربيـــة دينية وأدبية أو علمية الى تربية خلقية واجتماعية • وانالجزء الأخير

من الوصية خير دستور فى المعاملة الطبيعية ، والعقوبة المدرسية ، حيث يقول : « **ولا تمعن فى مسامحته فيستحلى الفراغ ويالفه وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فان أباهما فعليك بالشدة والغلظة** » .

وقد أفاض الحكماء والأدباء والفلاسفة فى هذا السبيل . فالغزالى يقول : «من أصاب علما فاستفاده وأفاده كان كالشمس تضىءلنفسها ولغيرها وهى مضيئة ، وليس يغيب عن ذهننا ما قاله بعض حكماء الاسلام : «أطلبوا العلم من المهد الى اللحد.اطلبوا العلم ولو بالصين»

وقيل لأبى عمرو بن العلاء : « هل يحسن بالشيخ أن يتعلم ؟ قال : أن كان يحسن به أن يعيش ، فانه يحسن به أن يتعلم » . ولا شك أن الطفل أولى من الشيخ فى التعلم .

وقال الغزالى رحمه الله (١) : العلم يقتنى كما يقتنى المال ..فمن علم وعمل وعلم فهو الذى يدعى عظيما فى ملكوت السماء ، فانه ... كالمسك الذى يطيب غيره وهو طيب . والذى يعلم ولا يعمل كالدفتر الذى يفيد غيره وهو خال عن العلم ، وكالمسن الذى يشحذ غيره ولا يقطع ، والابرة التى تكسو غيرها وهى عارية ، وذبالة المصباح تضىء لغيرها وهى تحترق . كما قيل :

ما هو الا ذبالة وقدت   تضىء للناس وهى تحترق

وقد قيل فى الأثر : تعلموا العلم ، فانه سبب الى الدين ، ومنبه للرجل ، ومؤنس للوحشة ، وصاحب فى الغربة ، ووصلة فىالمجالس، وجالب للمال ، وذريعة فى طلب الحاجة » . فمن آثار العلم انه يؤدىالى

ارجع الى الاحياء ج ١ ص ٤٩

الدين اذا عمل به ، وينبه الانسان الى ما ينفعه وما يضره ، ويؤنسه في وحدته ووحشته ، يكون صديقا له في غربته ، ووصلة له في المجالس والمنتديات ، ويجلب له المال ، ويكون وسيلة لطلب ما يحتاج اليه ، وهى فوائد جليلة ، وآثار عظيمة .

قال الشاعر :

يعد رفيع القوم من كان عالما وان لم يكن فى قومه بحسيب
وان حل أرضا عاش فيها بعلمه وما عالم فى بلدة بغريب

فالعالم — وان كان ذا أصل وضيع — يعد فى نظر الاسلام رفيعا حسيبا ؛ لأن الدين الاسلامى لا يفكر فى نسب أو حسب ، ولكنه يفكر فى علم وعمل ، وتقوى وطهارة ، واذا نزل بأرض استطاع أن يعيش فيها بعلمه ، وليس العالم غريبا فى أى بلدة من البلاد . فالعلم أساس للنجاح فى هذه الحياة ، به يستطيع الفقير ان يصل الى أكبر مركز ، وأعلى منصب فى الدول الاسلامية . فبالعلم والتعليم قلت الفروق الاجتماعية فى الاسلام ، وظهرت المساواة فى تكافؤ الفرص ، ولم يكن الفقر أو وضاعة النشأة عقبة فى الوصول الى المراتب السامية ، والمناصب العالية فى العالم الاسلامى ، لأن الاسلام دين الديمقراطية الحقة ، والعدالة المطلقة ، والمساواة التامة .

ان الفتى من يقول هأنذا ليس الفتى من يقول كان أبى

فالمسلمون يحكم عليهم بعلمهم وعملهم ، لا بمولدهم وعنصرهم وأصلهم ، ولا تأثير للآباء والاجداد ، والاحساب والانساب ، والغنى والفقر فى الحصول على المراكز الرفيعة فى الاسلام ، فالعدالة فيه

واجبة ، ولا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى ، والعمل الصالح ، والكفاية العلمية والخلقية •

ولا جدال فى أن التعليم حق من حقوق الانسان ، وضرورة من ضرورات الحياة ، كالماء والهواء والغذاء ، فاذا أراد أن يعيش ويحيا وجب عليه أن يتعلم ، ووجب علينا القيام بتعليمه •

واذا المعارف اشرقت فى أمة   نالت أمانيها بغير توان

فاذا انتشر التعليم فى أمة من الامم نالت أمانيها ، وحريتهـــا واستقلالها ، وما استطاع مستعمر أن يقف فى سبيلها ، فالتعليم أفضل شىء يملكه أفضل الرجال ، وخير وسيلة للنهوض بالامم المتخلفة وأحسن منحة يمكن أن تمنح ، والجهل أس الرذائل ، فحياة الجهل موت ، والانسان فى حاجة الى العلم ؛ لأن العلم وسيلة الحياة •

لهذا كان علماء الاسلام يشجعون الطلاب على الدراسة والتعلم ، وجمع الحقائق ، واستنباط الآراء والأفكار ، وتطبيقهـــا عمليا ، ويحثونهم على الرحيل والسفر الطويل فى سبيل طلب العلم والمعرفة •

لماذا أمر الدين الاسلامى بالتعليم ؟

لقد أمر الاسلام بالتعليم فى أول آية نزلت على الرسول الكريم ، لأنه أول الواجبات، وأكبر وسيلة للرقى، واصلاح العالم والشعوب، اذا صحب العلم بالعمل به • قال الغزالى : « لو قرأ رجل مائة ألف مسألة علمية ، وتعلمها ولم يعمل بها لا تفيده الا بالعمل • ولو قرأت العلم مائة ألف سنة ، وجمعت ألف كتاب لا تكون مستعدا لرحمة الله الا بالعمل » •

فالغزالى لا يكتفى بالعــلم ، ولكنه يؤكد أهمية العمل بالعلم . ويبدو ذلــك من قوله (١) : « **النــاس كلهم هلكى الا العالمين** ، والعالمون كلهم هلكى الا العاملين ، والعاملون كلهــم هلكى الا **المخلصين** » . فهو يتطلب من المسلم ان يتعلم ويعمل بمــا يعلم ، ويخلص فى عمله . ويقصد بالعمل صقل مرآة القلب عن قاذورات الدنيا ، وخبائث الاخلاق ، والتحلى بالاخلاق الحميدة من الصــبر والشكر ، وحسن الخلق ، وطيب المعاشرة ، والاخلاص ، والزهد ، والتقوى ، واجتناب الصفات الذميمة من الجزع ، ونكران الجميل ، والحسد ، والحقد ، والغش ، والفخر ، والخيلاء ؛ والكبرياء ؛ والرياء .

وقد شعر فلاسفة الاســلام بأثر العمل فى تثبيت العلم وزيادة أثره . قال الرسول الكريم : « **وانما يزهد الرجل فى علم يعــلم قلة انتفاعه بما علم** » . وقال النمرى القرطبى فى (جامــع بيان العلم وفضله حـ ١ ص ١١٨) ان عالمـا من المسلمين قال : « أوله العلم النية ، ثم الاستماع ، ثم الفهم ؛ ثم الحفظ ؛ ثم العمــل ؛ثم النشر » بمعنى ان الانسان ينوى التعلم ويقصده ؛ ثم يستمع ما يقوله العلماء ، ثم يفهم أقوالهم ، ثم يحفظها ؛ ثم يعمل بما تعلمه ؛ ثم ينشر ما تعلمه من الآراء والافكار بين الناس ، وهذا هــو المثل الأسمى فى التربية والتعليم .

ولسنا فى حاجة الى أن نذكر ثمرات العلم والتعليم ، ومضــار الجهل والامية ، فمن المحال ان ترقى أمة من الامم بغير تعميم التعليم ، ولا وسيلة لانقاذ الناس من شر الجهل والرذيلة الا بالعلم والعمل ، فالمدنية والحضارة والتقدم فى العلم والاختراع ، والابداع الــذى

---

(١) فى فاتحة العلوم ص ١٥

نراه بأعيننا فى الامم الراقية نتيجة التربية العامة ، والتعليم المنتشر بين جميع الطبقات .

وينبغى ان يكون المعلم عاملا بعلمه ، فلا يكذب قوله فعله ، وكل من تناول شيئا وقال للناس : لا تتناولوه ، فانه سم قاتل ـ سخر الناس به ، واتهموه ، وزاد حرصهم على ما نهوا عنه . ومثل المعلم المرشد من المسترشدين مثل الظل من العود . ومتى استوى الظل والعود أعوج ؟ ولذلك قيل فى هذا المعنى :

لا تنه عن خلق وتأتى مثله　　　عار عليك اذا فعلت عظيم

وقال الله تعالى : « **أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ؟** » ولذلك كان وزر العالم فى معاصيه أكبر من وزر الجاهل ، اذ يزل بزلته عالم كثير ، ويقتدون به ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ، ووزر من عمل بها ، ولذلك قال على كرم الله وجهه : « قصم ظهرى رجلان : عالم متهتك ، وجاهل متنسك ، فالعالم يغر الناس بتهتكه ، والجاهل يغرهم بتنسكه » قال صلى الله عليه وسلم : « **لا يكون المرء عالما حتى يكون بعلمه عاملا** » وقال أيضا : « **من ازداد علما ، ولم يزدد هدى ، لم يزدد من الله الا بعدا !** ».

وقال عمر رضى الله عنه : « **ان أخوف ما أخاف على هذه الأمة المنافق العليم** » قالوا : وكيف يكون منافقا عليما ؟ قال : عليم اللسان ، جاهل القلب والعمل .

وقال الحسن ـ رحمه الله ـ لاتكن ممن يجمع علم العلماء ، وطرائف الحكماء ، ويجرى فى العمل مجرى السفهاء . وقال رجل لأبى

هريرة رضى الله عنه : أريد أن أتعلم العلم ، وأخاف أن اضيعه . فقال : كفى بترك العلم اضاعة له .

وقال تعالى : « **كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون** » .

وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : ويل لمن لا يعلم مرة ، وويل لمن يعلم ولا يعمل سبع مرات . وروى مكحول عن عبد الرحمن بن غنم أنه قال : حدثنى عشرة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . قالوا : كنا ندرس العلم فى مسجد قباء ، اذ خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « **تعلموا ما شئتم أن تعلموا ، فلن يأجركم الله حتى تعملوا** » . فالدين الاسلامى يأمر بطلب العلم ، والعمل بما نعلم ، فالعلم بلا عمل كشجرة بلا ثمر .

قال الشاعر :

يا واعظ الناس قد أصبحت متهما
اذ عبت منهم أمورا أنت تأتيها
أصبحت تنصحهم بالوعظ مجتهدا
فالموبقات لعمرى أنت جانيها
تعيب دنيا وناسا راغبين لها
وأنت أكثر منهم رغبة فيها

وقد قيل : لاتطلبوا علم مالم تعلموا حتى تعملوا بما علمتم . « ومثل الذى يتعلم العلم ولا يعمل به كمثل امرأة زنت فى السر ، فحملت ، فظهر حملها ، فافتضحت . فكذلك من لا يعمل بعلمه يفضحه الله تعالى يوم القيامة على رءوس الأشهاد (١) » .

(١) ينسب هذا القول الى عيسى عليه السلام

كثيرا ما نســــمع نقدا مرا عن انتشـــار أمراض « البلهارسيا والانكلستوما » في البلاد ، وكثرة السائلين والعجزة ، وفاقـــدى البصر ، حتى بلغت نسبة فقد البصر عندنا أكثر من أى نسبة فى العالم ، ونسمع أيضا عن فساد الأخلاق ، وكثرة الحوادث والجرائم، ولو علمنا الأمة تعليما حقا لارتفـــع المســـتوى الصحى والخلقى والاجتماعى . وقد أحسنت وزارة التربية والتعليم فى جعلها التعليم الاعدادى والثانوى بالمجان حتى يشـــمل الفقراء والأغنياء ، ولا يحرم أحد التعليم بسبب الفقر ، ومن الواجب أن نعلم كل فرد من الجمهورية العربية المتحدة ، ويتعلم كل شخص من العالم الاسلامى ، والعالم العـــربى ، فان العلم سبيل الحـــرية والغنى ، والرقى والنهضة .

يجب أن نعلم الأمة حتى يقل الفقراء منها ، ولا نسمح للأطفال بالعمل الا بعد التعليم . يجب أن نعلمهم حتى نعدهم للكســـب ، ولحياة أحسن من الحياة التى يعيشونها غـــير متعلمين . يجب أن نعلمهم التعليم النظرى أولا ، ثم الصناعى أو الزراعى أو التجـــارى ثانيا ، ونبحث لهم عن عمل يسيرون فيه بعد معرفتهم حرفة مـــن الحرف ، و صناعة من الصناعات ، حتى نقضى على الجهل والفقـــر والمرض ، ولا نقبر ذكاء فرد واحد من أبناء الجمهورية العـــربية المتحدة .

انكم ان فعلتم ذلك نشأ الجيل الجديد نشأة صالحة ، فســـلم جسمه ، وحصف عقله ، وكمل خلقه ، واستطاع أن يحقق لأمتـــه ماتصبو اليه نفوسها من مجد مؤثل ، وعزة خالدة .

ولكى تعيد البلاد الاسلامية والعربية والشرقية مجدها القديم ،

وعظمتها السالفة ، يجب أن تعمل على نشر التعليم وتعميمه بها ، فالجهل علة العلل ، وهو السبب الأول فى التخلف عن الأيام الأولى، أيام المجد والعظمة • والتعليم هو الوسيلة الوحيدة للرقى فى كل ناحية من النواحى • والاسلام دين العلم والنــور ، ولا عيب فى الاسلام ، فالاسلام يطالب بتعليم الرجل وتعليم المرأة • « وطلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » كما يقول الرسول الكريم •

فمتى يأتى اليوم الذى يعمم فيه التعليم فى العالم الاسلامى كله ؟ ومتى نقضى على الجهل والامية ؟ ومتى نحتفل بدفن آخر أمى مــن الجمهورية العربية المتحدة ، والوطن العربى ؟

الفصل الثالث

العالم والمتعلم
أو
المعلم والتلميذ

لقد عنى فلاسفة الاسلام بالكتابة عن العالم والمتعلم ، أو المعلم والتلميذ ، وما لهمـا من حقوق ، وما عليهما من واجبات ، وكتبوا كثيرا عن الصفات التى يجب أن يتحلى بها كل منهما ، فقـد كتب النمرى القرطبى فى كتابه : (جامع بيان العلم وفضـله) عن « آداب العالم والمتعلم » ، وكذلك فعل الغزالى فى كتابيه : (فاتحة العلوم) و (أحياء علوم الدين) • وقد خص المعلم بالتقـديس والتبجيل ، وجعل فى منزلة تلى منزلة الانبياء ، قال الرسـول الكريم : « **ان مداد العلماء خير من دماء الشهداء** » فالعالم العامل خير من المتعبد الذى يصوم النهـار ، ويقضى الليل فى التعبـد والصلاة • وقد وصف الغزالى منزلة العلم والعمل فى قوله (١) : « **فمن علم وعمل بما علم فهو الذى يدعى عظيما فى ملكوت السماء، فكأنه كالشمس تضىء لغيرها وهى مضيئة فى نفسها ، وكالمسك الذى يطيب غيره وهو طيب • ومن اشتغل بالتعليم فقد تقلد أمـرا عظيما ، وخطرا جسيما ، فليحفظ آدابه ووظائفه** » •

(١) احياء علوم الدين للغزالى حـ١ ص ٥٢

وقد اعترف الشاعر أحمد شوقى بفضل المعلم فقال

قم للمعلم وفه التبجيلا   كاد المعلم أن يكون

فهو الاب الروحى للمتعلم ، وهو الذى يقوم بتغـ
بالعلم ، وتهذيب الأخـلاق وتقويمها ، فتبجيله تبجيل
وتقديره تقدير لهم ، به يحيون ، وبه ينهضون اذا أد
خير أداء .

وقد وصف أبو الدرداء المعلم والمتعلم بأنهما زميلا
ولا خير فيما عداهما .

وفى العصور الوسطى كان الاستاذ فى معاهد الغرب
قسوة وشدة ، فكان يحلف لعميد الكلية بأداء فروض
وتنفيذ النظام الذى تفرضه الجامعة عليه .. ويعد غائبا
لغرامة محددة اذا لم يحضر محاضرته خمسة من الطلبة .
وكان الطالب يكلف التبليغ عن أستاذه اذا غاب عن
اذن ، فى حين أن الأستاذ فى المعاهد الاسلامية كان يتمت
الوقت بكل رعاية وتقديس ، ويعامل بكل اجلال وتقدير
له مكانة سامية ، وحرية مطلقة فى التدريس ، واختيار
والوقت الذى يدرس فيه ، والعدد الذى يؤديه من المحاض

الصفات التى يجب أن تتوافر فى المعلم فى التربية الا

١ ـ الزهد والتعليم ابتغاء مرضاة الله :

كان للمعلم منزلة سامية مقدسة ، وعليه واجبات ثلاث
فقد كان زاهدا كل الزهد ، يقـوم بالتعليم ابتغاء مرضاة

ينتظر أجرا أو راتبا أو مكافأة مالية ، ولا يريد من مهنـــة التعليم سوى ارضاء الله ، ونشر العلم والتعليم . كان الاساتذة يستعينون على المعيشة والحياة بنسخ الكتب وبيعها لمن يريدهـــا ، ويكسبون عيشهم بهذه الوسيلة . وقد استمر علماء المسلمين عـــدة قرون وهم لا يقبلون أى أجر على تدريسهم ، ولكن بمضى الزمن أنشئت المدارس ، وحددت المرتبات للمعلمين ، فعارض هذا النظام كثير من العلماء ، ونقدوه ، ووقفوا ضده ، لزهدهم وورعهم ، وفى اعتقادنا أن قبول المرتبات لا يتعارض مع ارضاء الله ، والزهد فى الدنيا ، لأن العالم ــ مهما يكن زاهدا متقشفا ــ يحتاج الى شيء من المـــال يستعين به على مطالب الحياة .

٣ ــ طهارة المعلم :

يجب أن يكون المعلم طاهر الجسم والجوارح ، بعيدا عن الذنوب والآثام ، طاهر الروح ، بريئا من الكبر والرياء والحســـــد ، والعداوة والبغضاء ، وغيرها من الصفات الذميمة . قال الرســول الكريم : « هلاك أمتى رجلان : عالم فاجر ، وعابد جاهل ، خـــير الخيار خيار العلماء ، وشر الأشرار شرار العلماء » .

٣ ــ الاخلاص فى العمل :

ان اخلاص المدرس فى عمله أكبر وســيلة لنجاحه فى مهنته ، ونجاح تلاميذه ، ومن الاخلاص أن يعمل بما يقول ، وتتفق أعماله مع أقواله ، ولا يخجل من قول « لا أدرى » اذا كان لا يدرى ،فالعالم حقا هو الذى يشعر على الدوام بحاجته الى الاستزادة مـن العلم ، ويضع نفسه موضع تلاميذه فى البحث عن الحقيقة ، ويخلص لهم،

ويحافظ على أوقاتهم ، ولا مانع يمنع التعلم منهم ، لأنه يتحلى بالتواضع فى التربية الاسلامية ، ويكون حكيما حازما فيما يقول وما يفعل ، يلين فى غير ضعف ، ويشتد فى غير عنف •

٤ ــ الحلم :

يجب على المدرس أن يكون حليما مع تلاميذه ، يستطيع أن يضبط نفسه ، ويكظم غيظه ، ويكون رحب الصدر ، كثير الصبر ، لايغضب لأتفه الأسباب •

٥ ــ الهيبة والوقار :

ليكون العالم كاملا يجب أن يتصف بالهيبة والوقار ، ويكون ذاكرامة ، يربأ بنفسه عن الدنايا ، ويستنكف من القبيح ، ولا يصخب ، ولا يلغو ، حتى يكون مرفوع الرأس ، موضع التبجيل والاحترام •

٦ ــ يجب أن يكون المدرس أبا قبل أن يكون مدرسا :

يجب أن يحب تلاميذه محبته لأبنائه ، ويفكر فيهم كما يفكر فى أولاده • وعلى هذا المبدأ الاسلامى تبنى التربية الحديثة اليوم ، ويجب أن يكون الولد الالهى (وهو الطالب) أحب الى المعلم من الولد الصلبى • وان الاب الذى يضع أولاده فى قلبه أب عادى جدا ، ولكن الأب الذى يضع أبناء غيره فى قلبه يعد من الآباء الطاهرين المثاليين ، وأن أولى التلاميذ بالعطف والشفقة أولئك الفقراء الذين يأتون من منازل حكم عليها بالشقاء ، ولا يحبون

أحدا لانهم لم يشعروا بحب أحد ، وهنا الفرصة أمام المدرس فى أن يعمل ، للوصول الى قلوب هؤلاء البائسين لينقذ حيـــــاتهم ، وينجى أرواحهم من الموت والشقاء ، ويجتهـــد فى مساعدتهم ، وتسهيل الأمور فى سبيلهم بحيث يكون أبا شفيقا ، يعطف عليهم ، ويقوى ضعيفهم ، ويشاركهم شعورهم ٠

٧ ـ **يجب أن يكون عالما بطبائـــع الأطفال وميولهم** ، وعاداتهم **وأذواقهم ، وتفكيرهم** ، كى لايضل فى تعليمهم ٠ هذا ما ينـــادى به علماء التربية فى القرن العشرين ؛ ففى التربية الاسلامية كان المدرس مطالبا بالعلم باستعدادات الأطفال وطبائعهم ؛ ومراعاتها فى أثناء التدريس لهم ؛ كى يختار لهم الموضوعات الملائمـة التى فى مستواهم العقلى ، « ولا يرقيهم من الجلى الى الدقيق ، ومـــن الظاهر الى الخفى دفعة وفى أول مرتبة ، بل على قدر الاستعداد »٠ **فلا ينتقل من السهل الى الصعب ، ومن الواضح الى الخفى مـــرة واحدة ، بل يتدرج معهم على قدر استعدادهم وادراكهم وفهمهم ٠**

٨ ـ **يجب أن يتمكن المدرس من مادته** ويســـتمر فى البحث والاطلاع ، حتى لا يصير تعليمه سطحيا ، لايسمن ولا يغنى مـــن جوع ٠ وقد كان للمعلم منزلة كبيرة فى المرحلة العالية من التعليم ، وكان موضع ثقة وتقدير لدى الطلاب والآباء ، ويختلف عن المعلم فى المرحلة الاولى كثيرا ، ولا يتمتع بالمنزلة التى كان زميله يحظى بها فى تعليم الكبار ٠ فقد نظر بعض الكتاب الى المعلم الأولى نظرة لا تبجيل فيها ولا احترام ٠ فالجاحظ مثلا ينصح ألا تسترشد بمن يكثر الاختلاط بالأطفال والنساء ، فى حين أن كثيرين من العلمـاء

المشهورين كانوا معلمى أطفال ، مثل الكميت (١) والضحاك بن مزاحم ، وعبد الله بن الحرث ، وأبى عبيد القاسم الذى ولى قضاء خراسان .

وقد عير الحجاج بأنه معلم أطفال فى الطائف ، وكان اسمه وقتئذ كليبا ، فقال الشاعر فى ذمه مشيرا الى أنه كان يأخذ الخبز على سبيل الاجر :

أينسى كليب زمان الهزال ... وتعليمه سورة الكوثر
رغيف له فلكة ما ترى ... وآخر كالقمر الأزهر

وفى الكتب الاسلامية ارشادات كثيرة خاصة بالمعلم الأول ، نختار منها النصائح الآتية :

ألا يقتسم الطعام مع الأطفال ، ولا يكتب اعلانات ويلصقها على باب الكتاب ، ليجتذب التلاميذ اليه ، لأن مثل هذا العمل لا يصدر الا عن السوقة من الناس ، ولا يفرق بين الأغنياء والفقراء من التلاميذ ، ولا يستخدم الأطفال فى شئونه المنزلية ، وأن يعامل الجميع بروح العدل والانصاف ، ويقوم بتعليم الأطفال بنفسه ، واذا صعب عليه ذلك أمكنه أن يكلف بعض الكبار من الطلبة تعليم الصغار من التلاميذ . وهو نظام العرفاء فى التربية ، وهو نظام يسمح باشراك التلاميذ فى أن يعلم بعضهم بعضا ، ويملى بعضهم على بعض .

وقد لخص أبو شامة الشافعى فى كتابه : «مجموعات الرسائل» آداب معلم الصبيان فيما يلى :

---

(١) كان يعلم الاطفال فى مسجد الكوفة

« يبدأ باصلاح نفسه ، فان أعينهم اليه ناظرة ، وآذانهم اليه مصيغة ، فما استحسنه فهو عندهم الحسن وما استقبحه فهو عندهم القبيح ، ويلزم الصمت فى جلسته .. ويكون معظم تأديبه بالرهبة ، ولا يكثر الضرب والتعذيب .. ولا يمازح بين أيديهم أحدا .. ويقبح عندهم الغيبة ، ويوحش عندهم الكذب والنميمة ، ولا يكثر الطلب من أهلهم » . وكلها توجيهات قيمة ، لا اعتراض عليها فى التربية .

المؤدب أو المدرس الخاص :

المؤدب هو مدرس خاص يقوم بتعليم طفل او اكثر من ابناء العظماء والخلفاء ، وتأديبه وتثقيفه فى بيته أو قصره ، ويشترك الاب مع المؤدب فى اختيار المواد التى يدرسها الابن ، ويستمر المتعلم فى دراسته حتى يصل الى المستوى المنشود من التعليم ، ولكى يشرف المؤدب على تلميذه من الامراء اشرافا تاما كان يخصص له جناح فى قصر الامير ليعيش فيه ويتناول طعامه وشرابه وينام فيه . وكان المؤدب يعطى تلميذه أربع ساعات أو أكثر كل يوم من وقته ، ويمكث معهعدةسنوات يقضيها فى تعليمه وتهذيبه .

وكان الآباء من الخلفاء يحترمون المؤدبين لابنائهم ، ويعنون بهم عناية كبيرة ، حتى كان لهم مركز أدبى كبير فى المجتمع . ولم يرفض هذه الوظيفة الا قليل من الزاهدين لعزة أنفسهم ، وزهدهم فى المال كالخليل بن أحمد ، وعبد الله بن ادريس ، فانهما كانا يفضلان التدريس للجماعة لا لابناء الطبقة الخاصة .

ولنذكر هنا جزءا من وصية عبد الملك بن مروان لمؤدب أولاده ،

لنعرف الاغراض التى كان يرمى اليها من تربيتهم : « علمهم الصدق كما تعلمهم القرآن ، وجنبهم السفله ، فانهم أسوأ الناس رعة (١) وأقلهم أدبا ، وجنبهم الحشم(٢) ، فانهم لهم مفسدة ٠٠ وأطعمهم اللحم يقووا ، وعلمهم الشعر يمجدوا ، وينجدوا (٣) ، ومرهم أن يستاكوا عرضا ، ويمصوا الماء مصا ، ولا يعبوه عبا ، واذا احتجت الى أن تتناولهم بأدب فليكن ذلك فى ستر ؛ لا يعلم به أحد من الفاشية فيهونوا عليه » ٠

فعبد الملك ينصح المؤدب بأن يعود أبناءه الصدق ؛ ويعنى بالناحية الخلقية عنايته بالقرآن الكريم ، وحفظه وفهمه ، ويبعدهم عن الساقلين الساقطين من الناس ، حتى لا يحاكوهم فى أقوالهم البذيئة ، ، وأفعالهم الذميمة ، ولايتشبهوا بهم فى قلة ورعهم ، وسوء أدبهم ، ويجنبهم الحشم والخدم ، فانهم مفسدون لاخلاقهم وآدابهم ٠ وعليه أن يعتنى باعطائهم اللحوم ، والاهتمام بتغذيتهم ، كى تقوى أبدانهم ، ولا تضعف أجسامهم ، ويعلمهم الشعر وأوزانه وقوافيه ، حتى يتذوقوا ما فيه من الجمال ، ويصيروا من العظماء ، ويرتفعوا فى مراكزهم فى الحياة ، ولا تهمل العناية بأسنانهم ، وتنظيفها بالسواك ، لانها موصلة الى المعدة ، والمعدة تتأثر بما يصل اليها من طعام وشراب ٠ وعودهم أحسن العادات الصحيحة عند شرب الماء ٠ واذا أردت أن توبخهم أو تؤدبهم أو تعاقبهم فاجتهد ان يكون ذلك كله سرا لا يعلم به أحد ممن يفشون الاسرار ويذيعونها ، كى تحافظ على مركزهم ومنزلتهم ، ولا يحتقرهم أحد٠

---

(١) أقلهم ورعا ٠ (٢) الخدم ٠ (٣) يرتفعوا

وفى هذه الوصية لم يفكر عبد الملك بن مروان فى التربية العلمية والدينية ، والادبية وحدها ، ولكنه فكر أيضا فى التربية الخلقية والجسمية واللسانية ، والتربية الصحية ، والتربية الاجتماعية .

وتختلف النصائح والوصايا باختلاف الآباء وآرائهم فى تعليم أبنائهم . ولا يفوتنا هنا أن نذكر شيئا منها :

قال عمر بن عقبة لمؤدب ولده : **ليكن أول اصلاحك لولدى اصلاحك لنفسك ، فان عيونهم معقودة بك ، فالحسن عندهم ما صنعت ، والقبيح عندهم ما تركت . علمهم كتاب الله ، ولا تملهم فيه فيتركوه ، ولا تتركهم منه فيهجروه . روهم من الحديث أشرفه ، ومن الشعر أعفه ، ولا تنقلهم من علم الى علم حتى يحكموه ، فان ازدحام الكلام فى القلب مشغلة للفهم . وعلمهم سنن الحكماء ، وجنبهم محادثة النساء ، ولا تتكل على عذر منى لك ، فقد اتكلت على كفاية منك .** وفى رواية أخرى : **وعلمهم سير الحكماء ، وأخلاق الأدباء ، وكن لهم كالطبيب الذى لايعجل بالدواء حتى يعرف الداء » .**

فهو ينصح لمؤدب أولاده باصلاح نفسه أولا ، ليكون قدوة حسنة لهم ، فانه فى نظرهم مثلهم العالى ، ينظرون اليه بعيونهم ، ويحاكونه فى أقواله وأفعاله ، يستحسنون ما يفعل ، ويستقبحون ما يترك ، وعليه أن يعلمهم كتاب الله، ليهتدوا بهديه، ويستضيئوا بنوره ، ويحذر أن تصل السآمة والملل الى قلوبهم فيتركوه ، ويشجعهم على فهمه وحفظه ، والاستمرار فى الانتفاع به ، ولا تتركهم منه فيتركوه ويهجروه . وكما تعنى بالقرآن الكريم يجب

أن تعنى برواية الحديث الشريف ٠ واختر لهم من الشعر العربى أعفه ، وابعده عن الغزل والهجاء ، كى لا يتأثروا بما يدرسون وما يقرأون ، ولا تنقلهم من علم الى علم حتى يجيدوا العلم الاول ويتقنوه ، فان اتقان المادة تسهل على المتعلم تذكرها ، وكثرة المواد الدراسية فى المناهج تشغل الطالب عن الفهم ٠ وعلمهم طرق الحكماء فى حياتهم وأعمالهم وتصرفاتهم ، حتى يقتدوا بها ٠ وابعدهم عن محادثة النساء ، خوفا عليهم من الفتنة والوقوع فى الضلال ، ولا تتكل على عذر منى لك ، فقد اتكلت على كفايتك ، ووثقت باخلاصك وأمانتك ، وكن لهم كالطبيب الماهر الذى يشخص المرض ويعرف كنهه أولا ، ثم يعمل على معالجته ٠ وهى نصيحة ثمينة يجب ان ينتفع بها كل مؤدب أو معلم ، يتطلب أن يكون مثلا عاليا فى الاخلاق ، ماهرا فى التدريس ، يشجع طلبته على حفظ القرآن ، ودراسة الحديث ، ويرغبهم فيهما ، ويختار لهم من الشعر أعفه وأحسنه ، ويجيدون كل مادة ، ويقتدون بالحكماء فى حياتهم ، ويبتعدون عن النساء ، ويتفرغون للعلم والدراسة ٠

وقال هشام بن عبد الملك لسليمان الكلبى مؤدب ابنه : « ان ابنى هذا هو جلدة ما بين عينى ٠ وقد وليتك تأديبه ، فعليك بتقوى الله ، وأد الامانة ، وأول ما أوصيك به أن تأخذه بكتاب الله ، ثم روه من الشعر أحسنه ، ثم تخلل به فى أحياء العرب ، فخذ من صالح شعرهم ، وبصره طرفا من الحلال والحرام والخطب والمغازى » ٠

فهشام يقول لمؤدب ولده : ان ابنى أعز شىء لدى ، وقد تركت لك تعليمه وتهذيبه ٠ وقد وصاه بتقوى الله ، وأداء الأمانة فان

لصلاح المعلم أثرا فى نفس المتعلم ، والرجل الصالح ينتفع بعلمه وتقواه ، وأول وصية يوصى بها هشام العناية بالقرآن الكريم ، وحفظه ودراسته ، ثم رواية أحسن الشعر حتى يكسب ابنه ذوقا فى الشعر ، يمكنه من أن يقدر ما فيه من روعة الأسلوب ، وجمال الخيال ، وصواب الفكرة ، ثم الرحيل معه ؛ والانتقال بين أحياء العرب ؛ ليروى عنهم أحسن الشعر ، ويتلقى منهم أجمله ، وتفهيمه ما أحله الله ، وما حرمه ، حتى يكون بصيرا بدينه ، ويعرف حلاله من حرامه ، يفعل الأول ، ويجتنب الثانى • وشجعه على دراسة خطب الخطباء وحفظها ، والانتفاع بما فيها من حكم رائعة ، وآراء سديدة ونصائح ثمينة ، وأساليب بليغة ، ومعرفة مغزى كل خطبة ، وما يرمى اليه الخطيب من خطبته •

وفى عصر الدولة الفاطمية ، أنشأ الفاطميون فى قصورهم مدارس خاصة ، لتعليم أبناء الولاة ، وسراة المسلمين ، وتربيتهم تربية تمكنهم من ملء المناصب الهامة فى الدولة •

حقوق الطلبة وواجباتهم فى التربية الاسلامية :

عنيت التربية الاسلامية بحقوق الأساتذة وواجباتهم ، كما عنيت بما للطلبة من حقوق ، وما عليهم من واجبات ، وما يجب أن يتمسكوا به من آداب • فمن حقوقهم : تيسير سبل التعلم لهم ، واعطاؤهم كل فرصة فى أن يتعلموا من غير تفرقة بين الغنى والفقير منهم • وقد وصف الرحالة ابن جبير السبل التى يسرت للطلبة العلم والتعلم ، والمدارس العظيمة التى أنشئت لهم ، والأوقاف التى رصدت لهم وللمدرسين ، والقصور التى شيدت لسكناهم ، والربط

التى أعدت وجهزت لهم ، وعدها كلها فخرا عظيما من مفاخر الاسلام والمسلمين ... فمن أراد الفلاح فليرحل الى بلاد المغرب، ويتغرب فى طلب العلم ، فيجد كثيرا من المساعدات . ولا عجب ، فقد كان المسلمون ينظرون الى طلاب العلم بعين الاجلال والتقدير ، لأنهم يسعون فى طلب أسمى شيء فى الوجود ، وهو العلم والمعرفة، وكانوا يقولون ان من يسعى فى طلب العلم يسير فى طريق الجنة.

ومن الواجبات التى يجب أن يعمل بها كل طالب ، ويجعلها نصب عينيه دائما :

١ ـ قبل أن يقبل الطالب على العلم يجب أن يبدأ بتطهير قلبه من الرذيلة ؛ لأن التعلم والتعليم يعدان من العبادة ، ولا تصح العبادة الا مع طهارة القلب ، والتحلى بالأخلاق الكريمة كالصدق والاخلاص ، والتقوى والتواضع ، والزهد والرضا ، والبعد عن الصفات الذميمة ، كالحقد والحسد ، والكراهية والكبرياء ، والغش والفخر والخيلاء .

٢ ـ أن يقصد من تعلمه تجميل روحه بالفضيلة ، والقرب من الله ، وليس الظهور بين الناس ، والمباهاة والجاه .

٣ ـ أن يثابر على تحصيل العلم ، ويبعد عن الأهل والوطن، ولا يتردد فى الرحيل ان استدعى الأمر الذهاب الى أقاصى المعمورة للبحث عن أستاذ من الأساتذة .

٤ ـ الا يكثر من تغيير مدرسيه ، بل يجب عليه ان يتريث قبل أن يقدم على التغيير .

٥ـ أن يحترم أستاذه ويبجله ، ويوقره لله ، ويعمل على ارضائه بكل وسيلة من الوسائل •

٦ ـ الا يضايق الأستاذ بكثرة الأسئلة ، ولا يعننه في الجواب، ولا يمشي امامه ، ولا يجلس مكانه ، ولا يبدأ بالكلام حتى يؤذن له •

٧ ـ الا يفشي لأستاذه سرا ، ولا يغتاب عنده أحـــدا ، ولا يطلبن عثرته ، وان يقبل معذرته ان زل •

٨ ـ الجد والدأب في الدرس ، ووصـــل الليل بالنهار في احراز المعرفة ، مبتدئا بتحصيل الاهم من العلوم •

٩ ـ أن تسود روح المحبة والمودة بين الطلبة ، حتى يروا كأنهم أبناء رجل واحد •

١٠ ـ أن يبدأ الطالب أستاذه بالسلام ، ويقلـــل بين يديه الكلام ، ولا يقول له قال فلان خلاف ما قلت ، ولا يسأل جليسه في مجلسه •

١١ ـ وأن يواظب على الدرس والتكرار في أول الليل وآخره ، « فان ما بين العشاء ووقت السحر مبارك » • وان هذا يذكرنا بقول الشاعر :

ياطالب العلم باشر الورعا واترك له النوم واترك الشبعا

١٢ ـ أن يوطن النفس على التعلم الى آخـــر العمـــر ، والا يستهين بشيء من العلوم بل يجعـــل لـــكل واحد منها حظه الذي يستحقه ولا يحاكي ما سمعه من بعض أسلافه ، من الطعن في بعض العلوم كالمنطق ، وعلوم الحكمة •••

وأهم المبادىء التى قيلت فى التربية الاسلامية عن « العـــالم والمتعلم » :

١ ـ الخلق الكامل أفضل من العلم :

لقد عد المسلمون الأخلاق الكاملة أفضل من العلم ، وجعلوها أساسا لنجاح العالم والمتعلم على السواء ، فكما أن الوضوء يجب أن يسبق الصلاة كذلك ينبغى أن يبدأ المعلم والطالب بتطهير نفسيهما من الرذائل والنقائص ، لأن العلم أيضا نوع من العبادة . ولا ريب أن فى ذلك لب الحكمة ، ونهاية الرشد ، فكل تربية لا تؤسس على الخلق الكامل تعد تربية فاشلة ، وكل مدنية لا تؤسس على الخـــير والفضيلة ، تعد مدنية خداعة زائفة كالسراب .

٢ ـ تقديس العلم والعلماء :

ان من أروع مبادىء التربية الاسلامية تقديس العلم والمعـــرفة وتقديس العلماء والعلمين ، فالعلم كان مقدسا ، والمعلمــون كانوا مقدسين لدى الاسلام والمسلمين ؛ لهذا أخلص العالم والمتعلم الاخلاص كله فى الدراسة والبحث ، وثابرا عليهما ، فوجــــد بين المسلمين أفذاذ لا نظير لهم من العلماء والمتعلمين ، ولكن المغالاة فى هـــــذا التقديس قد أدت الى اضعاف روح النقد بينهم .

٣ ـ العناية التامة بتقوية الروابط الشخصية ، والألفة والمحبة بين العلماء والمتعلمين .

فالعالم مطالب بالشفقة على المتعلمين ، ومعاملتهم كما يعامل الأب أبناءه ، والمتعلمون مطالبون بارضاء أساتذتهم واحتـــرامهم

وتبجيلهم · وفى تقوية الرابطة والألفة والمحبة بين العلماء والمتعلمين دعم لأسس النجاح فى التربية التعليم · فان نجاح المربى يتوقف على غرس روح الثقة والمودة بينه وبين تلاميذه · فاذا أخلص المدرس لتلاميذه ، وأحسوا بعطفه عليهم وحبه لهم كان العسير من المواد ميسرا ، والصعب سهلا · وقد ينفر الطالب من علم من العلوم لنفوره من مدرس ذلك العلم · وقد يحب المتعلم مادة من المواد ، ويتعلق بها كل التعلق لحبه لمدرس تلك المادة ، وتعلقه به ·

ولقد نبه فلاسفة التربية الاسلامية الى أثر حسن الصلة بين المدرس وتلاميذه فى التربية والتعليم ، فعنوا كل العناية بهذا المبدأ ودرسوا ميول الطلاب ، ومستواهم العقلى والعلمى ، وبحثوا عن خير السبل لافادتهم والنهوض بهم ، واستعملوا فى تعليمهم الترغيب والتشويق ، لا الارهاب والتخويف ، وشجعوا استعمال المدح والثناء ، وتركوا التوبيخ والتأنيب ، فنجحوا كل النجاح فى أداء رسالتهم العلمية ، وكانت التربية الاسلامية تربية مثالية تتمثل فيها الناحية الانسانية ·

واجبات المعلم فى نظر الغزالى :

ولنذكر هنا الواجبات التى يجب على المعلم مراعاتها فى رأى الغزالى :

١ – أن يشفق على المتعلمين ، ويجريهم مجرى بنيه · قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انما أنا لكم مثل الوالد لولده » فيعاملهم المعلم كما يعامل أبناءه ·

٢ — ألا يقصد بالتعليم جزاء ولا شكورا ، بل يقصد به وجه الله ، والتقرب اليه .

٣ — الا يدع من نصح المتعلم شيئا ، بل ينتهز كل فرصة لنصحه وارشاده .

٤ — أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق ، بطريق التعريض ما أمكن ، ولا يصرح ، وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ ، فالغزالى ينصح بالزجر بالاشارة والتلميح لا التصريح اذا حدث من المتعلم ما ينافى الأخلاق مع مراعاة الرأفة والرحمة فى زجره .

٥ — أن يراعى مستوى الأطفال من الناحية العقلية ، ويخاطبهم على قدر عقولهم ، ولا يلقى اليهم أشياء فوق مستوى ادراكهم حتى لا ينفروا من التعلم ، ويتخبطوا فيما يفهمون . وهذا خير مبدأ فى التربية الحديثة اليوم .

٦ — ألا يقبح فى نفس المتعلم علوم غيره : ينبغى أن يوسع على المتعلم طريق التعلم فى غير علمه . ومعنى هذا أنه يجب ألا يتعصب لمادته .

٧ — ينبغى أن يلقى الى المتعلم القاصر (الضعيف) الجلى اللائق به ، ولا يذكر له أن وراء هذا تدقيقا وهو يدخره عنه حتى لا تفتر رغبته ، ويضطرب عقله ، ويقصد بهذا مراعاة مستوى الضعفاء من المتعلمين ، واختيار المادة السهلة الواضحة التى تناسبهم . ويجب ألا يشعرهم بأنهم ضعفاء ، أو أغبياء ، حتى لا يؤثر فى نفوسهم تأثيرا سيئا . فان هذا النوع من الايحاء مضر بهم .

٨ ـ **أن يعمـــل المعلم بعلمه** ، فلا يكذب قوله فعله ، قال الله تعالى : « **أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ؟** » « **كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون** » • وقال عليه الصلاة والسلام : « **لايكون المرء عالما حتى يكون بعلمه عاملا** » • وقال أيضا : « **من ازداد علما ولم يزدد هدى ، لم يزدد من الله الا بعدا** » •

الفصل الرابع

حظ المرأة من التعليم فى الاسلام

لقد فرض طلب العلم على المرأة كما فرض على الرجل فى الاسلام فقد سوى الدين الاسلامى بين المرأة والرجل فى الأمور الروحية ، والواجبات الدينية ، ولم يفرق بينهما فى العلم والتعلم ، قال رسول الله الكريم : « **طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة** »، من غير تفرقة بينهما فى طلب العلم ، فالعلم مقدس فى الاسلام وطلبه فريضة على كل مسلم ومسلمة .

وقد كان للمرأة العربية فى الجاهلية الحق فى التعلم ، وكان بين النساء كاتبات وشاعرات . وحينما ظهر الاسلام بدأت الحياة العقلية تنشط وتحيا لدى العرب ، وكسبت المرأة حقوقا اجتماعية لم تكن لها قبل الاسلام فنهض التعليم بين النساء ووضع الكتاب والمؤرخون أسماء المسلمات المتعلمات اللاتى كن يعرفن القراءة والكتابة فى صدر الاسلام ، فأثبت البلاذرى « أن السيدة حفصة زوج النبى كانت تقرأ وتكتب ، وعائشة بنت سعد كانت تعرف القراءة والكتابة والسيدة عائشة بنت أبى بكر كانت تقرأ المصحف » وتعلم الكثير قال رسول الله : « **خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء** » . وقد قال فى شأنها عروة بن الزبير « **ما رأيت أحدا أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة** » . وقد روت عن النبى صلى الله عليه وسلم ألف حديث .

ومن النساء المسلمات النابغات : الخنساء ، وهى شاعرة عرفت بجودة الشعر ، والوطنية الصادقة ، والوفاء والتضحية ، والسيدة سكينة بنت الحسين رضى الله عنه ، وهى شاعرة أديبة ، عالمة بضروب الايقاع ، وسيدة الناقدين ، وكان الشعراء يفدون على دارها من كل حدب وصوب للمباراة بالاشعار فى حضرتها · وقد خطت عائشة بنت طلحة خطوات السيدة سكينة ، فاشتهرت بنقد الشعر والغناء، واجتمع لديها الادباء والشعراء والرواة للمناقشة فى الادب والشعر والرواية ·

وان الكتب العربية مملوءة بأسماء المسلمات النابغات فى العلوم الدينية والادبية والطبية ، وأسماء الجوارى الشهيرات فى الآداب والفنون ·

وقد اشتهرت المرأة المسلمة بالصـــدق فى علمها ، والأمانة والدقة فى روايتها · وأخذ أفاضل العلمـــاء بروايتها · وقد قال الحافظ الذهبى ــ وهو محدث عظيم ــ : « وما علمت من النساء من اتهمت ، ولا من تركوها » · ومن النساء الشهيرات فى عالم الحديث: كريمة المروزية ، وســيدة الوزراء وكانتا من أهم راويات الاحاديث التى جمعها البخارى · وقد ذكر الحافظ بن عساكر ــ وهو أحـــد رواة الحديث ــ أن عدد شيوخه وأساتذته من النساء كان بضعـــا وثمانين أستاذة ·

وقد سرقت مرة امرأة من قريش ، من ذوات الحسب والنسب، فعوقبت عقاب من يسرق فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ،فحاول

أحد المسلمين أن يشفع لها ، فقال له النبى : « أتشفع فى حـد من حدود الله ؟ » ثم قام فخطب ، فقال : « يا أيها الناس انما أضل من قبلكم أنهم اذا سرق الشريف تركوه ، واذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد . وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمـد يدها » .

ففى الاسلام مساواة بين الرجل والمرأة فى الثواب والعقاب ، ولا يتميز عليها الا فى أنه مطالب بالانفاق عليها ، ورعايتها ، والدفاع عنها . قال تعـالى فى موقـف المرأة : « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة ، وحينما بدأ النبى ينشر قواعد الاسلام ومبادئه نشرها بين الرجال والنساء من غير تفرقة .

وان من يدرس « تعليم المرأة فى الاسلام » يجد رأيين متناقضين فى هذا الموضوع :

الأول : رأى من يقـول بتعليم المرأة القرآن الكريم والدين الاسلامى ليس غير ، وينهى عن تعليمها الكتابة والشعر . وقـد بالغ أنصار هذا الرأى ، وادعوا أن المرأة ناقصة العقل والدين ، وأن نقصها لا يشجع على تعليمها العلوم ، وفى هذا المعنى يقول شاعرهم:

النساء ناقصات عقل ودين   ما رأينا لهن رأيا سنيا
ولأجل الكمال لم يجعل الله   تعالى من النساء نبيـا

ومنهم القابسى الفقيه القيروانى (١) ، فهو لا يرى بأسـا من تعليم المرأة القرآن والدين لا « الترسل والشعر ... وانما تتعلم ما يرجى له سلامة ، ويؤمن عليها من فتنته ، وسلامتها من تعلم الخط

(١) صاحب كتاب (الفضيلة لأحـوال المتعلمين)

أنجى لها » • وهو رأى يسىء الظن بالمرأة ، ولا تقول به أكثـــرية المسلمين •

الثانى : رأى من ينادى بتعليم المرأة من المسلمين ، وهو رأى سديد ، يستمد قوة عظيمة من استناده الى أحاديث نبوية تشجع على تعليم المرأة ، منهـــا الحديث الذى ذكرناه فى بدء الموضوع ، وهو : « **طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة** » • وقوله صـــلى الله عليـــه وسلم : « **وأيما رجل كانت عنده وليدة (١) فعلمها فأحسن تعليمها ، وأدبها فأحسن تأديبها ، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران** »

وقد حض النبى على تعليم أزواجه الكتابة ، فقال للشفـــــاء العدوية ــ وقد كانت تجيد القراءة والكتابة فى الجاهلية قبل الاسلام ــ « ألا تعلمين حفصة رقية النملة كما علمتها الكتابة ؟ » •

وقد انتصر الرأى القائل بتعليم المرأة المسلمة القراءة والكتابة حتى وصلت المرأة المسلمة الى أسمى درجات العلم والثقافة ، ونالت أكبر قسط من التربية والتعليم فى العصور الذهبية للاسلام ، فكان من النساء المسلمات الكاتبة والشاعرة ، والطبيبة والمعلمة والقاضية ، ولم يستطع المترددون الوقوف فى سبيـــل تعليمها الا فى البـــلاد الضعيفة المتخلفة ، ففى تلك البلاد حرمت المرأة العلم والنـــور ، وحجبت عن الأعين ، وتركت فى دارها جاهلة لا تقرأ ولا تكتب •

وفى كتب الأدب العربى والسير عدد كبير من النساء المسلمات الشهيرات ، نذكر منهن :

---

(١) أمة

١ ـ **علية بنت المهدى** ، وهى شاعرة ، معروفة بالنبوغ الشعرى والمعانى الرقيقة ، والعبارة الجزلة .

٢ ـ **عائشة بنت أحمد بن قادم** ، وقد نشأت بقرطبة ، ولم يكن فى زمانها فى الأندلس من يماثلها ، فى فهمها وعلمها وأدبها ، وشعرها وفصاحتها وعفتها ، وكانت تجيد الخط ، وتكتب المصاحف وتجمع الكتب الثمينة فى خزانتها ودارها ، وقد توفيت سنة ٤٠٠هـ

٣ ـ **ولادة بنت الخليفة المستكفى بالله** ، وهى أديبة شاعرة ؛ ناظرت الأدباء والشعراء ، وكان قصرها منتدى متسعا ، يأوى اليه رجال الادب والشعر ، والوزراء والعلماء والقضاة .

٤ ـ **لبنى** ، وهى الكاتبة فى ديوان الخليفة الحكم بن عبد الرحمن المجيدة للكتابة الشاعرة ، العالمة بالنحو ، المتينة فى الحساب والعلم ، وقد توفيت سنة ٣٩٢ هـ .

٥ ـ **فضل** : وهى جارية تعلمت فنون الأدب والشعر والغناء ، وقد اشتريت وأهديت الى الخليفة المتوكل ، وعرفت بالذكاء وحضور البديهة ، والنبوغ فى الشعر الغنائى ، الذى يحتاج الى رقة الطبع ، والعاطفة ، وقوة التأثير . وقد ظهرت فى عصر تميز بفحول الشعراء كالبحترى ، وابن الرومى ، وعلى بن الجهم ، فلم تقصر عن هؤلاء جميعا .

٦ ـ وقد أشار ابن أبى أصيبعة فى كتاب طبقات الأطباء الى طبيبتين مسلمتين درستا الطب ، واشتغلتا به ، **منهما الطبيبة زينب** طبيبة بنى أود التى عرفت بعلاج أمراض العيون . وكانت النساء

المسلمات يقمن في الحروب الاسلامية بمداوة الجرحى ، وخدمتهم ومعاونتهم ، كما تعمل سيدات الهلال الأحمر والصليب الأحمر في الحروب اليوم .

روى أن أمية بنت قيس الغفارية قالت : اتيت رسول الله في نسوة من بني غفار ، وهو سائر الى غزوة خيبر ، فقلنا : يارسول الله قد أردنا أن نخرج معك ، فنداوى الجرحى ، ونعين المسلمين بما استطعنا ، فقال : على بركة الله .

وتقول الربيع بنت معوذ : كنا نغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنسقى القوم ونخدمهم ، ونداوى الجرحى، ونرد القتلى والجرحى الى المدينة .

ومن الطبيبات المسلمات أيضا **الطبيبة أم الحسن بنت القاضى ابى جعفر الطنجالى** ، وقد كانت طبيبة مبرزة شهيرة فى الطب ، كثيرة الاطلاع ، وأجادت علوما كثيرة مع الطب ، وأخت الحفيد بن زهر وابنتها كانتا عالمتين بالطب والمداواة ، ولهما خبرة كبيرة بعلاج أمراض النساء (١) .

٧ ـ وفى العصر العباسى ، فى عهد الخليفة المقتدر ، أشارت كتب التاريخ الى امرأة مسلمة ، تولت القضاء ، واطمأن الناس الى عدالتها فى الحكم ، واعترفوا بفضلها ، ومقدرتها القضائية .

ومع أن الميدان السياسى صعب وليس بسهل ، نجد بين المسلمات نساء اشتغلن بالسياسة ، وناصرن طائفة على أخرى ،

---

(١) طبقات الاطباء لابن ابى اصيبعة ح٢ ص ٧٠

معتمدات على فصاحتهن ، وعاطفتهن المؤثرة ، وبديهتهن الحاضرة ، ومقدرتهن الخطابية الملتهبة ، كما حدث وقت القتال بين على ومعاوية فقد ناصرت نساء كثيرات عليا ، مثل هند بنت يزيد الأنصارية ، والزرقاء بنت عدى بن قيس ، وأم الخير البارقية ، وعكرشة بنت الأطروش · وقد أعجب معاوية بن أبى سفيان بالنساء اللاتى خاصمنه ، وخطبن ضده ، فبعث وطلب بعض الخطيبات منهن ، لمناقشتهن ومساجلتهن ، ومعرفة ما عسى أن يقلن عنه بعد أن قتل على ، وتولى معاوية الخلافة (١) ·

وفى العصور التى تلت عصر معاوية لعبت الخيزران وشجرة الدر دورا كبيرا فى سياسة الدولة الاسلامية ·

ومما سبق يتبين أن المرأة المسلمة لم تكتف بالدراسة وتحصيل العلم ، ولكنها انتفعت بعلمها وذكائها ، وذوقها الأدبى ، ونشاطها العقلى فى النواحى التى اشتغلت بها كالأدب والسياسة والاجتماع والطب والقضاء والتدريس ، **ولكن عدد المشتغلات بمهنة التعليم من المسلمات كان أكثر ممن اشتغلن بالمهن الأخرى** ، كما هو حادث الآن ، وكان العلماء من الرجال يقومون بالتدريس للنساء ، وكانت النساء يقمن بالتدريس للرجال ·

وقد اعترف بعض العلماء والأدباء بفضل النساء المسلمات، فقد ذكر بن خلكان أن أم المؤيد زينب بنت الشعرى كانت عالمة ، أخذت العلم عن كبار العلماء وروته عنهم ومنحوها اجازة علمية أدبية ، وقال انها منحته اجازة كتبتها له فى سنة ٦١٠ هـ ·

(١) صبح الاعشى للقلقشندى جـ ١ ص ٢٤٨ ·

وقد قيل ان طرفة بنت عبد العزيز بن موسى قد تلقت العلم عن العلماء المشهورين فى عصرها بالاندلس ، وأخذت عنهم كثيرا من كتبهم ، وقد كانت متزوجة ، وسمح لها زوجها بتدريس هذه الكتب لطلبتها وكان من النساء مدرسات منقطعات لتدريس العلوم الدينية للنساء وللعبادة .

هذا وصف موجز لما نالته المرأة المسلمة من التعليم العالى وهذا حظها منه فى وقت حاول فيه دعاة التردد فرض قيود عليها فى التعلم . ولم يقل نصيبها من التعليم الاولى عن نصيبها من التعليم العالى . ولكننا لا نستطيع أن ننكر أو نتناسى أن تعليم الأبناء كان أسهل من تعليم البنات ، وأن تعليم البنات كان فيه شىء من الصعوبة وأن عدد المتعلمين من المسلمين أكثر من عدد المتعلمات من المسلمات . والسبب فى القلة هو ما كان يوضع من العقبات فى سبيل تعليم النساء تعليما مدنيا ، وفى سبيل تعليمهن الخط والكتابة . وقد رأى بعض المتشددين ألا يعلم البنون والبنات فى مكتب واحد أو مدرسة واحدة ، خوفا من أثر الاختلاط ، ومع هذا كان الذكور يتعلمون أخيرا مع الاناث فى كتاب واحد ، وخاصة فى البلاد الريفية والنائية ، حتى وقتنا هذا ، وكانت البنات يتعلمن فى بيوتهن فى البدء على أيدى بعض المؤدبين أو الأقارب .

والحق أن الاسلام قد اعترف بحق البنات فى التعلم ، الى أقصى حدود العلم — ان كان للعلم نهاية — فتعلمت التعليم الابتدائى ، واستمرت فى التعلم وطلب العلم حتى وصلت الى التعليم العالى ، فدرست المرأة المسلمة الأدب والدين والطب ، واشتغلت بالقضاء،

واشتركت في الشئون السياسية ، وكان من النساء الأديبات والكاتبات والشاعرات والخطيبات ، والفقيهات والطبيبات ، والقاضيات ، والسياسيات ، وبلغت كثيرات منهن منزلة علمية رفيعة ، فكان منهن الاستاذات والمدرسات للامام الشافعي ، وابن خلكان، وأبي حيان ، وجميعهم من الفقهاء والعلماء والأدباء المشهورين، ويكفيهن هذا فخرا بين النساء في جميع الاديان . وهذا أكبر دليل على ما تمتاز به التربية الاسلامية من الحرية في التعلم والديمقراطية في التعليم ، واليقظة الروحية في الاسلام .

موازنة بين المرأة المسلمة والمرأة المسيحية في القرون الوسطى

اذا قلبنا صفحات التاريخ في القرون الوسطى وجدنا أن المرأة الأوروبية المسيحية كانت غارقة في بحار الجهل ، وأن الاغريق القدماء ـ ماعدا الاسبرطيين وأفلاطون ـ مهما كان لديهم من حضارة ومدنية ـ عدوا المرأة جزءا من المتاع الذى يلهو به الرجل ويتمتع به، وبخلوا عليها بحقها في التعلم ، وفي المساواة بالرجل من الناحية الاجتماعية ، وألفينا أن الألمان كانوا يقولون : ان خزانة الملابس هي مكتبة المرأة . وأن الفرنسيين كانوا يعتقدون أن المرأة يجب أن تكون بين أربعة جدران ، ورأينا أن المرأة المسلمة قد بلغت في العصور الوسطى منزلة سامية من الناحية العلمية ، والنهضة العقلية ، والسمو الروحي ، واشتركت في الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية للمجتمع الاسلامي في عصوره الذهبية ، ووصلت الى درجة كبيرة من الثقافة والعلم كانت تحسد عليها .

من هذا كله يتضح أنه لا صحة للرأى المنتشر بين المتعصبين من الغربيين بأن جهل المرأة المسلمة راجع الى أسباب دينية ، وتقاليد

اسلامية ، فالاسلام دين علم ونور ، لا دين جهل وظلمة ، وقد اوجب طلب العلم على كل مسلم ومسلمة ، ولكن روح التعصب هو الذى نشر هذه الفكرة الخاطئة عن الاسلام .

وان من يقلب الصفحات الماضية للمرأة المسلمة سيجد فيها صورا للعظمة الروحية ، والعناية بالقيم المعنوية التى يرمز اليها تعليم المرأة فى عصر النهضة الاسلامية . فللنساء المسلمات ماض مجيد تستطيع المرأة المسلمة اليوم أن تفخر به ، وتبنى فوقه لنفسها مجدا علميا وروحيا آخر .

والحق أننا لسنا فى حاجة الى ذكر الفوائد التى تعود على الأمة الاسلامية من تعليم البنات ، فقد مضى الوقت الذى كان يعد فيه تعليم المرأة عارا . واننا ننتظر من كل أب مسلم أن يقوم بتعليم أبنائه وبناته من غير تفرقة ، لأننا اذا قمنا بتعليم الابن فالتعليم لا يتعدى فردا واحدا ، ولكننا اذا علمنا البنت فكأننا قمنا بتعليم أسرة وتثقيفها ، لأن بنت اليوم أم فى المستقبل ، تقوم بتربية أبنائها وبناتها . ولو ألقينا نظرة واحدة الى التاريخ لوجدنا للامهات فضلا عظيما فى تكوين العظماء من الابناء .

واعتقد أنه قد مضى الوقت الذى كانت فيه المرأة المسلمة منكودة الحظ ، مهضومة الحق ، مهملة فى التعليم . ولا ينكر أحد من المسلمين اليوم فضل تعليم البنت . وانى أقصد بالتعليم التعليم الذى يؤدى الى الفضيلة والرقى والكمال فى كل ناحية من نواحى الحياة . وليس هناك مضرة ولا منقصة ولا عار فى تعليم الفتاة المسلمة التعليم الذى يمكنها من كسب عيشها ، والاعتماد على نفسها اذا ابتليت بيوم

اسود ، أو أصيبت بفقر وفقد زوج أو أب • أمن العيب أن تجعل المرأة حية بالعلم ، قادرة على العمل ؟ هل العار في العمل والقدرة على كسب العيش من طريق شريف • أو في الاستجداء من الناس ، والالتجاء الى وسائل غير شريفة ؟ ماذا تستطيع المرأة المسلمة أن تفعل اذا تركت وحولها خمسة أطفال لا دخل لهم ولا معين ؟

فيأيها المسلمون ، علموا بنـــاتكم ، ولا تعطلوا نصف الأمة الاسلامية ، فمحال أن ترقى ما دام نصفها الذى يقوم بالتربيـــة المنزلية متعطلا جاهلا ، لا يعرف عن الحياة شيئا ، ساعدوها بالتربية الكاملة ، ورقوها بالعلم والتعليم ، واحترموها ، فما هي الا مخلوق مثلكم ، ولا تتركوها جاهلة مهملة • فكروا فى تربية بناتكم ، كما تفكرون فى تربية أبنائكم •

ان المرأة ضعيفة القوة ، فقووها بالعلم وحسن الخلق ، ولا تقبروها بالجهل وهى حية • افتحوا سبل التعليم أمامها ، فان المرأة اذا تعلمت استطاعت أن تقوم بما يقوم به الرجل ، استطاعت أن تكون معلمة ، وأستـــاذة ، وطبيبة للنساء والأطفـــال ، والعيون ، والامراض البـــاطنية ، والاسنان ، والاذن والانف والحنجـــرة ، وممرضة للمرضى ، ومربية ، وكاتبة ، ومؤلفة ، وباحثـــة وعالمة ومهندسة معمارية ، ومدافعة عن حقوق المرأة ، واستيقظوا من سباتكم ان كنتم نائمين • ورحم الله حافظ ابراهيم ، اذ قال :

الأم مدرســة اذا أعددتها أعددت شعبـا طيب الأعراق

ورحم الله شوقى حيث قال :

واذا النســـاء نشأن في أمية رضـع الرجال جهالة وخمـولا

ليس اليتيـم من انتهى أبواه من هـم الحيـاة وخلفاه ذليـلا
ان اليتيم هـو الذى تلقى له أما تخلت أو أبا مشـغولا

وليس الذكاء مقصورا على الابناء ، أو خاصا بالبنات ، بل هو شركة بين النوعين • ومن النقص أن توجه العناية الى نوع ويهمل الآخر ، ومن الحكمة أن ننتفع بذكاء البنات فى دائرة حياتهن ، كما ننتفع بذكاء البنين ، حتى نجـد شعبـا مسلما كاملا ، جمع بين الحسنيين ، ينهض ببلاده الاسلامية ، ويعيد اليها تراثها الخالد ، فى عصورها الذهبية •

وقد أباحت الشريعة الاسلامية للمرأة أن تتجر ، ومنحتها الحق فى التجارة والحق فى التملك والبيع والشراء ، والتصرف فيمـا تملك ، من غير رجوع الى زوجها ، وجعل لها الحق فى أن ترث وهى زوجة ، وترث وهى أم ، أو أخت ، فالاسلام أعطى **المرأة حقهـا فى التعليم** ، وحقها فى التملك ، وحقها فى الميراث ، وهـو دين العلم والديمقراطية ، والعدالة الاجتماعية •

الفصل الخامس

القواعد الأساسية للتدريس فى التربية الاسلامية :

سنوضح الان القواعد الاساسية للتدريس للاطفال ، مستشهدين بأقوال بعض العلماء من المسلمين ، كالغزالى ، وابن سينا ، والزرنوجى ، والعبدرى ، وابن خلدون .

(١) عدم تحديد السن للبدء فى التعليم :

لم تحدد سن للبدء فى تعليم الاطفال ، فكان بعض الآباء يرسلون أولادهم للتعلم آونة فى الخامسة من عمرهم ، وأحيانا فى السادسة أو السابعة ، ولم تلزمهم الحكومة بارسالهم فى سن معينة ، فقد كان طلب العلم فى الاسلام فرضا على كل مسلم ومسلمة ، وقد ترك للآباء اختيار الوقت المناسب لارسال أولادهم الى الكتاتيب أو غيرها للتعلم .

وقد انتقد العبدرى فى كتابه « مدخل الشرع الشريف » الآباء الذين يرسلون أبناءهم الى الكتاتيب قبل السنة السابعة من العمر ، قائلا ان السلف الصالح كانوا يرسلون أبناءهم الى الكتاب فى سن السابعة ، وهى السن التى يكلف فيها أولياء الامور تعليم الاولاد الصلاة والفضائل من الاخلاق ، ولكن الاطفال يذهبون الآن

للتعلم في سن مبكرة ، فليحذر المدرس من تعليمهم القراءة في سن مبكرة ، لان تعليمهم المبكر في الرابعة أو الخامسة يرهقهم جسميـــا وعقليا · والواقع أن الآباء الذين يرسلون أطفالهم الى المـدارس والكتاتيب مبكرين لا يقصدون تعليمهم القراءة والكتابة ، ولـكنهم يريدون التخلص من متاعبهم ، فيبعدونهم عن الدار أو البيت ·

وان التربية الحديثة اليوم تؤيد ما رآه العبدري من علماء الاسلام قديما في نقد التبكير في ارسال الاطفال الى المدرسة في سن الرابعة أو الخامسة · واذا أرسلوا في تلك السن فانهم يرســلون الى رياض الاطفال ليلعبوا ويتعلموا بطريقة اللعب في التربية ·

(٢) عدم تحديد المدة التي يمكثها الطفل في الكتاب :

لم تكن هناك مدة محددة يمكثها الطفل للتعلم في الكتاب ، فقد كان الطفل يرسل الى المكتب ، فيتعلم مبادىء القراءة والكتابة ، ثم يأخذ في حفظ السور القصيرة من القرآن ، فيحفظ جزء عم ، ثم جزء تبارك ، بالترتيب ، ثم يستمر في حفظه ، حتى يحفظ بعضه أو كله ، وقد يستمر الصبي في الكتاب الى سن المراهقة · ويتعلم دروس الدين ، وبعض الاحاديث ، ويدرس في الوقت نفسه الحساب والنحو والشعر

(٣) التفرقة في الطريقة التي تتبع في التعليم :

فطريقة التدريس للاطفال تختلف عن الطريقـــة التي تتبع في التدريس للكبار ، وقد نادى الغزالي بذلك المبدأ ، لأن هناك فرقا بين ادراك الصغار ، وادراك الكبار ، وقال : « **ان من أول واجبات المربي أن يعلم الطفل ما يسهل عليه فهمه** ، لان الموضوعات الصعبة تؤدي الى

ارتباكه العقلى ، وتنفره من العلم » ويعد هذا الرأى من أهم الآراء فى التربية الحديثة فى القرن العشرين .

ويشاركه العلامة ابن خلدون فى هذا المبدأ ، فهو يرى أيضا مراعاة ادراك الطفل ، ومستواه عند التدريس له ، حيث يقول : « وقد شاهدنا كثيرا من المعلمين لهذا العهد الذى أدركنا يجهلون طرق التعليم وافادته ، ويحضرون للمتعلم فى أول تعليمه المسائل المقفلة من العلم ، ويطالبون ذهنه بحلها ، ويحسبون ذلك مرآنة على التعليم ، وصوابا فيه ... فان قبول العلم والاستعداد له ينشأ تدريجيا ، فيكون المتعلم أول الامر عاجزا عن الفهم بالجملة الا الاقل ، وعلى سبيل التقرب والاجمال بالامثلة الحسية ، ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرج قليلا قليلا بمخالفة مسائل ذلك الفن ، وتكرارها عليه ، والانتقال فيها من التقريب الى الاستيعاب الذى فوقه ، حتى تتم الملكة فى الاستعداد ثم التحصيل ... » فالغزالى وابن خلدون وغيرهما يرون ان تفكير الطفل يخالف تفكير الرجل ، ويجب مراعاة ذلك فى طريقة التدريس.

(٤) ألا يخلط المعلم علمين معا :

لكى يضمن تيسير عمل المدرس يرى ابن خلدون « ألا يخلط المعلم علمين معا ، فانه حينئذ قل أن يظفر بواحد منهما ، لما فيه من تقسيم البال ، وانصرافه عن كل واحد منهما الى تفهم الآخر .

(٥) العناية بالامثلة المحسة لتقريب المعنى الى أذهان الاطفال ، وهو ما يقصده علماء التربية من مناداتهم بالانتقال من الامور المحسة الى المعقولة ، حتى يسهل على المتعلمين الفهم والادراك .

(٦) مراعاة ميول الاطفال لبعض المواد الدراسية ، حتى يسهل عليهم فهمها • وقد بين ابن خلدون أن مطالبة الاطفال بدراسة المسائل الصعبة التى فوق مداركهم تؤدى الى اجهادهم اجهادا عقليا ، والى كراهنهم الدائمة للعلم والتعلم ، ونادى بأن تكون المادة مناسبة فى سهولتها وصعوبتها لادراك الطفل ، وانتقد من كانوا يقولون بتقديم المواد الصعبة للطفل ، ظانين أن ذلك يساعد فى تقوية تفكيره • وهذا ما يريده علماء التربية اليوم من قولهم : الانتقال من السهل الى الصعب • فابن خلدون يتفق مع فلاسفة التربية الحديثة الذين يطالبون بمراعاة ميول الطفل ، وجعلها أساسا لتعليمه ، وينادون بأن نجاح الطفل فى أى عمل يساعده على النجاح فى غيره من الاعمال ، لان النجاح يؤدى الى النجاح ، وكما يساعده على النجاح يشبع ما لديه من ميل فطرى الى حب التقدم والسيطرة •

فاذا كانت الدروس صعبة ، والمواد فوق مستواه صعب على الطفل فهمها ، وضاعت ثقته بنفسه ، لانه لم يجد الغذاء العقلى المناسب لنموه وتقدمه •

ولا يمكننا هنا أن ننسى ما أظهره ابن خلدون من الآراء النفسية والملاحظات الدقيقة الخاصة بمراحل النمو ، وهى لا تختلف مطلقا عن آراء علماء النفس فى عصرنا الحاضر ، فقد بين ما تمتاز به مرحلة الطفولة من الطاعة والهدوء والاستقرار ولهذا عنيت التربية الاسلامية فى هذه المرحلة بالحفظ والاستظهار ، والاعادة والتكرار ، والانتفاع بما لدى الطفل من الاستعدادات ، ووضح ما تمتاز به مرحلة البلوغ والمراهقة من الميل الشديد الى الحرية ، والاستقلال فى العمل ، وكره القيود والعبودية •

(٧) البدء بتعلم اللغة العربية ثم دراسة القرآن الكريم :

حينما اختلط العرب بغيرهم من المسلمين فسدت اللغة العربية ، وكثر الخطأ واللحن ، ولهذا نادى القاضى أبو بكر بن العربى بالبدء بتعليم النشء اللغة العربية ، وتقديمها على غيرها من المواد ، ثم الانتقال الى دراسة القرآن الكريم ، لان دراسته تسهل بعد معرفة اللغة العربية . وقد وافق ابن خلدون على هذا الرأى قائلا : « أما أن يؤخذ الصبى بكتاب الله فى أول عهده بالتعليم ، فيقرأ ما لا يفهم ، فامر يدل على الغفلة (١) » .

فابن خلدون يرى مراعاة ادراك الطفل وفهمه ، ويطالبه بقراءة ما يستطيع أن يفهمه ، وتعلم ما يمكنه أن يدركه . ويعترف ابن خلدون بصواب طريقة أبى بكر ابن العربى ، ولكنه لا ينصح باتباعها ، لان « العادات لا تساعد عليها » فقد كان المسلمون يبكرون بدراسة القرآن وحفظه ، ويزودون الطفل بكل ما يستطيع أن يحفظه فى الصغر من القرآن ، للتبرك به ، خوفا من أن يحدث له شىء فى شبابه يقطعه عن العلم ، فيفوته القرآن ، ولهذا كانوا ينتهزون الفرصة فى الطفولة ، ويكلفونه البدء بحفظ القرآن ، خوفا من أن يذهب وهو خال منه .

فهذه الرغبة فى التبرك بالقرآن الكريم ، وشدة التعلق به ، والخوف من ضياع الفرصة فى حفظه فى الطفولة ، تغلبت على مبدأ فى التربية نادى به ابن خلدون وهو : تعليم الطفل ما يستطيع فهمه ، ويناسب ادراكه ، ويشبع ميوله ورغباته وحاجاته .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٩٤

(٨) مراعاة استعدادات الصبى الفطرية وغرائزه الطبيعية فى ارشاده الى المهنة :

لقد طالب علماء التربية الاسلامية ـ وخاصة ابن سينا ـ بمراعاة ميول المتعلم واستعداداته الفطرية ، وقدراته الطبيعية عند ارشاده الى المهنة التى يختارها فى مستقبل حياته لخدمة بلاده • وقد نادى ابن سينا بالعناية بدراسة ميول الصبى ، وجعلها أساسا لارشاده وتربيته حيث قال : « ليس كل صناعة يرومها الصبى ممكنـــــة له مؤاتية ، ولكن ما شاكل طبعه وناســـــبه • وانه لو كانت الآداب والصناعات تجيب وتنقاد بالطلب والمرام دون المشاكلة والملاءمة ما كان أحد غفلا من الأدب ، وعاريا من صناعة ، واذن لأجمع الناس كلهم على اختيار اشرف الآداب ، وارفع الصناعات ، ••• وربما نافرطباع الانســـان جميع الآداب والصنـــاعات ، فلم يعلق منها بشىء ••• **ولذلك ينبغى لمدبر الصبى اذا رام اختيار صناعة أن يزن أولا طبع الصبى ، ويسبر قريحته ، ويختبر ذكاءه ، فيختار له الصناعات بحسب ذلك** » ••

وهى نصيحة ثمينة لابن سينا ، ينصح فيهـــا المربين من الآباء والمعلمين ، الذين يرومون اختيار صناعة من الصناعات ، لصبى من الصبيان ، أن يزنوا طبع الصبى أو ميله ويعرفوه ، ويختبروا قريحته وعقله وذكاءه ، حتى يختاروا له من الصناعات ما يناسب ميـــله وعقله ، وهذا رأى من أثمن الآراء فى التربية الاسلامية ، يتفق مـــع أحدث الاتجاهات فى التربية الحديثة ، فهـــو يرى أن من الواجب البحث عمـــا يناسب ميول الصبى وطباعه وغرائزه ، ومراعاتها فى اختيار ما يرغب التخصص به فى المستقبـــل ، فاذا كان يميل الى

الدراسة الدينية وجه اليها ، واذا رغب فى الناحية العملية شجع عليها ، واذا أحب الدراسة العقلية أو العلمية أرشد اليها ، وأعطى الفرصة فى دراسة ما يريد ، وهذا ما ننادى به اليوم فى عالم التربية ٠

فمن كان يميل بطبيعته الى العلوم الرياضية لا يمكنه أن يفوق فى الآداب ، وليس من السهل أن يظهر المتعلم الفوق والنبوغ والمهارة فى كل مادة يدرسها ، ولكنه يستطيع أن يفوق وينبغ ويكون ماهرا فى المواد التى يحبها ويميل الىدراستها ، أما المواد التى يكرهها وينفر منها فمن المحال أن يتفوق فيها ٠ فكل متعلم ميسر لما خلق له ٠ وهذا ما يريده ابن سينا بقوله : « وربما نافر طباع الانسان جميع الآداب والصناعات ، فلم يعلق منها بشىء ، ولو كان من السهل أن يحقق المتعلم كل ما ينبغى لكان أديبا أو عالما أو رياضيا ، أو طبيبا كما أراد ، ولكن ميول الشخص وذكاءه وعقليته هى التى تتحكم فى فوزه أو خيبته ، وتؤثر فى نجاحه أو اخفاقه ٠

وقد عنى عبد الرحمن بن الجوزى (المتوفى سنة ٥٩٧ هـ) كل العناية بتوضيح **أهمية الاستعدادات الفطرية التى لدى الصبى ، ومراعاتها فى التدريس** حيث قال : « ان الرياضة لا تصلح الا فى نجيب ، والكودن (١) لا تنفعه الرياضة ، والسبع وان ربى صغيرا لا يترك الافتراس» ومعنى هذا أن الذكاء والغباوة أثرا كبيرا فى نجاح المتعلم أو اخفاقه فى الناحية العلمية ، وأن النجيب الذكى يصلح للرياضة ، ويستطيع أن يدرسها ، ويفوق فى دراستها ، وأن الكودن

الكودن : الفرس الهجين والبغل والفيل والبرذون

ـ وهو البليد الغبى ـ لا تنفعه الرياضة ، ولا يمكنه أن ينجح فى المواد التى تحتاج الى نجابة وذكاء ، ولا يستطيع أن يفوق فيها ، والسبع مفترس بفطرته ، ولن تحوله التربية من حيوان مفترس الى حيوان مستأنس أليف ، هادىء وديع لا يضر أحدا لأن الطبع يغلب التطبع ، قال الشاعر العربى :

اذا ما المرء لم يولد لبيبا   فليس بنافع قدم الولاده

وهو يريد بهذا أن الانسان اذا لم يولد ذكيا ، فان قدم الولادة أى كبر السن لن ينفعه ، ولن يؤثر فيه • واذا رزق أحد الاغنياء والاثرياء طفلا فى منتهى الغباوة فلن يستطيع بغناه وثروته ، وعنايته بتربيته، واحضار أحسن المربين له أن يحوله من غبى الى ذكى أو فائق الذكاء(١) فالذكاء وراثى ، وهو هبة فطرية من الله ، بها يستطيع الانسان أن يحل ما يعترضه من المشكلات فى الحياة • وان النسبة الذكائية للشخص الواحد محددة لا تزيد ولا تنقص بالتربية ، فالذكى ذكى بفطرته ، والغبى غبى بطبيعته ، فالذكى وهو طفل ذكى وهو رجل ، والغبى فى طفولته غبى فى رجولته •

وقد أوصى الزرنوجى فى كتابه : « تعليم المتعلم » ألا يختار الطالب وحده المادة التى يريد أن يتخصص بدراستها ، بل يشترك معه المدرس بما أوتى من خبرة وتجربة فى اختيار ما يلائمه من العلوم • وليس لدينا ما يمنع من أن يختار الطالب المواد التى يميل اليها ، مسترشدا برأى أستاذه فى الاختيار ، بشرط ألا تهمل ميول الطالب من الناحية العلمية •

(١) الاختبارات العقلية ومقاييس الذكاء فى الفصل الأول ج ٢ من كتاب « فى علم النفس » للمؤلف وشريكه

هذه الآراء كلها ثمينة ، تدل على عظمة فلاسفة الاسلام ، وما كان لديهم من أفكار ناضجة فى تربية الطفـــل ونفسيته ، والوراثة والاستعدادات الفطرية ، والميول الطبيعية ، فى وقت كانت العقول فيه مغلقة ، والآراء فجة .

(٩) اللعب والترويح عن النفس :

لقد أحس علماء التربية الاسلامية بأن الطفل فى حاجة الى اللعب والترويح عن النفس بعد الانتهاء من دروسه ، فحجرة الدراسة التى كان يسودها الهدوء والاصغاء للدرس والسكون ، ومحاولة التعلم ، فكان الطفل يشعر بالملل والتعب ، والحاجة الى الراحة والحركة ، والترويح عن النفس ، لهذا كانوا يسمحون للطفل خارج حجـــرة الدراسة بالكلام والحركة والنشاط والمرح واللعب ليروح عن نفسه ، ويزيل ما يحس به من السآمة والملل ، أو التعب . ويعـــد اللعب للترويح عن النفس فى التربية الاسلامية هاما ومفيـــدا للطفل من النواحى العقلية والجسمية والخلقية . ولا عجب ، فقد نصح الغزالى أن يسمح للطفل باللعب الجميل ، لا باللعب الشاق ، بعد الانتهاء من دروسه لتجديد نشاطه ، بشرط ألا يتعب نفسه ، « فان منع الصبى من اللعب وارهاقه بالتعلم دائما يميت قلبه ، ويبطل ذكاءه ، وينغص عليه العيش (١) » .

وقد نادى العبدرى بضرورة اللعب ، والترويح عن النفس للطفل ، بعد ساعات الدرس . ولهذا تجد فى جميع المعاهد الاسلامية عطلة كل أسبوع من ظهر يوم الخميس الى نهاية يوم الجمعة ، وعطلة فى

(١) الاحياء للغزالى ح ٣ ص ٦٨

الاجازة الصيفية ، وعيد الفطر ، وعيد الأضحى، والمناسبات الدينية الاسلامية ، كأول السنة الهجرية ، ومولد النبى صلى الله عليه وسلم ٠

وقال الغزالى : « وينبغى أن يؤذن له (للصبى) بعد الانصراف من الكتاب أن يلعب لعبا جميلا يستريح اليه من تعب المكتب ، بحيث لا يتعب فى اللعب ، فان منع الصبى من اللعب وارهاقه بالتعلم دائما يميت قلبه ، ويبطل ذكاءه ، وينغص عليه العيش ، حتى يطلب الحيلة فى الخلاص منه رأسا ٠٠٠ وهذا كله يطابق ما تطلبه التربية الحديثة اليوم ٠

الفصل السادس

طرق التدريس فى التربيه الاسلاميه

طريقة دراسة القرآن الكريم :

كان الاطفال قبل تعلم القراءة والكتابة يحفظون سورا قصيرة من القرآن الكريم بطريقة التلقين ، بأن يلقنهم « سيدنا » بعض السور الصغيرة ، فيقرأها أمامهم ، ويكررونها معه عدة مرات حتى يحفظوها عن ظهر قلب . وكان « سيدنا » يستعين بالعريف ، وكبار التلاميذ فى تعليم المبتدئين من الاطفال . ويؤخذ على هذه الطريقة عدم الاهتمـــام بشرح معانى الســور التى تحفظ ، فالأطفال كانوا يحفظون بطريقة التكرار من غير فهم للمعنى ، للتبرك بالقرآن الكريم ، وبث الروح الدينى ، روح الصلاح والتقوى فى نفوس النشء من الصغر ، ولاعتقاد المعلمين أن مرحلة الطفولة خير وقت للحفظ الآلى ، والتذكر . يقول الشاعر العربى :

أرانى أنسى ما تعلمت فى الكبر ولست بناس ما تعلمت فى الصغر

وفى هذا القول نظر .

والقرآن الكريم أثمن ذخيرة فى نظرنا ــ نحن المسلمين ــ يجب تذكرها والاحتفاظ بها دائما ، والنقد الذى يوجه الى هذه الطريقة فى التربية الحديثة الحفظ من غير فهم للمعنى ، فالتربية اليوم تتطلب تفهيم المعنى للطفل ، كى يسهل عليه الحفظ والتذكر ، وليس من السهل تفسير القرآن لكل من يريد أن يحفظه .

ولقلة من كان يعرف الكتابة في العصر الاسلامى الأول كان المسلمون يعتمدون على ذاكرتهم أكثر من اعتمادهم على الكتابة . ولهذا عنى الادباء والشعراء من المسلمين بحفظ ما يسمعون من الأدب والشعر . وقد عرف العرب بالحفظ وقوة الذاكرة ، للمرانة المستمرة، والتعود على الحفظ ، وكانوا يذكرون :

ليس بعلم ما حوى القمطر ما العلم الا ما حواه الصدر

ويقولون :

اذا لم تكن حافظا واعيا فجمعك للكتب لا ينفع
أأحضر بالجهل فى مجلسى وعلمى فى الكتب مستودع

* * *

استودع العلم قرطاسا فضيعه وبئس مستودع العلم القراطيس

فالعرب قبل الاسلام قد اعتادوا الحفظ قبل فهم المعنى ، ويبدو هذا من قول ابن قتيبة الدينورى فى كتاب عيون الأخبار : « أول العلم الصمت ، والثانى الاستماع ، والثالث الحفظ ، والرابع العقل، والخامس النشر » .

وهناك من علماء الاسلام من رأى فهم القطعة قبل حفظها ، والبدء بادراكها تمام الادراك قبل استظهارها ، كابن المبارك ، حيث قال : « أول العلم النية ، ثم الاستماع ، ثم الفهم ، ثم الحفظ ، ثم العمل ، ثم النشر .

واننا نحبذ رأى ابن المبارك فى أن يبدأ الطفل التعلم بالاستعداد له ، والاصغاء الى الدرس ، والانتباه له حتى يفهمه ، ثم حفظه عن ظهر قلب ، ثم العمل بالعلم ، ثم نشر ما تعلمه . وقد

نقد ابن خلدون فى مقدمته طريقة حفظ القرآن قبل تفهيم التلاميذ ما يحفظونه منه ٠

ولاجادة التدريس جعل مدرس خاص لتحفيظ القرآن الكريم ، وآخر لتعليم الاطفال القراءة والكتابة والخط ، وقد عنى المسلمون عناية كبيرة بالخط ، وأتقنوه اتقانا تاما ، وعدوه فنا من الفنـــون الجميلة ، ولكى لا تكون الآيات القرآنية معرضة للمحو من الألواح كانوا يفضلون اختيـــار بعض الحكم والأبيات الشعرية فى تعليم الخط ، والقراءة والكتابة ٠

تدريس الشعر للاطفال :

لفلاسفة الاسلام طريقة خاصة فى تدريس الشعر ، فقد كان المدرسون يختـــارون الأشعار السهلة فى العبارة واللغة ، القصيرة فى الأبيات ، الخفيفة فى الوزن ، كى يسهل عليهم حفظها وفهمها ، وكانوا يراعون فى اختيارها ما قيل فى مدح الأخلاق النبيلة ، وذم الرذيلة ، كمدح الكرم ، وذم البخل ، والحث عـــــلى حب الوآلدين وطاعتهما ، وفى هذا المعنى قال ابن سينا : « ٠٠٠ وينبغى أن يروى الصبى الرجز (١) ، ثم القصيدة ، فان رواية الرجز أسهل ، وحفظه أمكن ، لان بيوته أقصر ، ووزنه أخف ٠ ويبدأ من الشعر بمـــــا قيل فى فضل الأدب ، ومدح العلم ، وذم الجهل ، وعيب السخف ، وما حث فيه على بر الوالدين ، واصطناع المعروف ، وقرى الضيف ، وغير ذلك من مكارم الاخلاق (٢) » وقد حذروا من تعليم الاطفال أشعار الغزل والغناء ٠

(١) الرجز ضرب من الشعر ، ابياته قصيرة ، واوزانه خفيفة ٠
(٢) كتاب السياسة لابن سينا ، ص ١٣ ٠

فدراسة الشعر كانت دراسة مباشرة للاخلاق ، وسبيلا من سبل بثالأخلاق الكريمة ، وقد فكر علماء الاسلامفيأثر الأوزانالشعرية في نفوس الأطفال ، وغرس الأخلاق الحسنة بتلك الدراسة ، وفي حفظهم للشعر الخلقي ، السهل العذب ، كانوا يربون الاطفال تربية جمالية ، ويبثون في نفوسهم الذوق الفني الجميل ، ويشبعون

ميولهم الغرزية للناحية الموسيقية بالشعر الموسيقي ، وان لم يذكروا ذلك في كتابتهم . ولا يمكننا أن ننكر أنهم لم يراعوا في اختيارهم ما يميل اليه الاطفال من شعر حول الحيوان والازهار والقصص .

التدريس في المرحلة العالية :

(١) اللحاق بالمعاهد العليا بدون قيود أو شروط :

تبدأ مرحلة التعليم العالي في التربية الاسلامية بعد سن البلوغ ، وقد يدرسها الطالب في خمس سنوات ، وقد يستمر في دراسته العالية أكثر من عشر سنوات . ولم يكن اللحاق بالمعاهد العليا مقيدا بشروط خاصة ، بل كانت المعاهد ميسرة لكل راغب في التعلم ، متعطش للعلم ، قادر على الدراسة ، فيدرس ما يشاء من العلوم ، ويختار من يريد من العلماء ، ويظل منتظما في حلقات العلم ، مستمرا في تلقيه ما دام لديه رغبة في العلم ، وميل للبحث ، وقد يتلقىالطالب العلم عن شيخه في داره ، أو في أيمكان ، وكان المسلمون يقصدون المسجد للعبادة أو الدراسة ، في حين أن المدرسة كان يؤمها المتعطشون للعلم ، الراغبون فيه . وهذا كله يدل على روح الحرية والديمقراطية في التربية الاسلامية .

(٢) الرحيل فى سبيل طلب العلم :

وفى المرحلة العالية كانت التربية الاسلامية تمتاز بالرحلات فى طلب العلم ، والمقصود بالرحلة أن ينتقل الطالب من بلدة الى أخرى ليتلقى العلم مباشرة عن أستاذ كبير فى مادة من المواد • وقد تستغرق الرحلة أحيانا عدة سنوات ينتقل فيها الطالب فى المدن الاسلامية المختلفة ، يقابل فيها مشهورى العلماء ، ويأخذ العلم من منابعه الاولى •• وقد يسافر الطالب الى أقصى بلد اسلامى لطلب العلم على أحد الشيوخ ، ولم يعبأ الطلاب ببعد المسافة ، أو مشقة السفر ، والرحلة فى سبيل تلقى العلم ، وكثيرا ما كان طلبة طبرستان وبخارى يطلبون العلم فىمصر ، وطلبة الأندلس يتلقون العلم فى أصفهان •• وكان العلماء من المسلمين يعاملون معاملة أبناء أمة واحدة هى الأمة الاسلامية ، مهما اختلفت بلدانهم الأصلية • وكان للرحلات أثر عظيم فى النهوض بالكبار من المتعلمين ، وفى تربيتهم من النواحى العلمية والعملية والعقلية والاجتماعية والدينية والثقافية •

ويحكى عن ابن الاعرابى – وقد كان لغويا مشهورا بالكوفة فى القرن الثانى من الهجرة – أنه رأى فى مجلسه يوما رجلين يتحادثان ، فقال لاحدهما : من أين أنت ؟ فأجاب : من اسبيجاب (وهى مدينة قريبة من الصين فى أقصى بلاد الشرق) •

وقال للاخر : من أين أنت ؟

فأجاب من الاندلس •

فعجب لذلك •

وقد شرح ابن خلدون الاسباب فى شدة عناية المسلمين بالرحلات حيث قال :

« والسبب فى ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما يتحلون به من المذاهب والفضائل تارة علما وتعليما والقاء ، وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة ، الا أن حصول الملكات المباشرة والتلقين أشد استحكاما ، وأقوى رسوخا . فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها » فالرحيل كان لتلقى العلم عن العلماء ، ومحاكاتهم فى علومهم وأخلاقهم ، ومعرفة مذاهبهم .

ويرى الحاج خليفة فى كتابه (كشف الظنون) ما رآه ابن خلدون فى الرحلات العلمية . ويزيد عليه قوله : « ان لقاء أهل العلوم ، وتعدد المشايخ يفيد الطالب فى معرفة الاصطلاحات وتمييزها بما يراه من اختلاف طرقهم » .

والحق أن الغرض من الرحلة كان فى الأصل جمع الأحاديث النبوية ، حينما أحس المسلمون بوجوب تدوين الأحاديث وتمحيصها ، لأنها هامة جدا من الناحية الدينية ، ومصدر من مصادر الدين ، فرحل العلماء الى جميع جهات الامبراطورية الاسلامية فى القرن الثانى من الهجرة للاتصال بالعلماء والرواة الذين كانت لهم صلة بمن عاصروا رسول الله ، أو عاصروا الصحابة ، فقد ذكر عن ابن شهاب ، عن ابن عباس أنه قال : « كان يبلغنا الحديث عن رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، فلو أشاء أن أرسل اليه حتى يجيئنى فيحدثنى فعلت ، ولكنى كنت أذهب اليه ، فأقبل على بابه ، حتى

يخرج الى فيحدثنى (١) » وقال يحيى بن سعيد : انى كنت أسير الليالى والايام فى طلب الحديث الواحد » .

ثم استمرت الرحلات فى سبيل طلب العلم حتى صارت من دعائم التربية الاسلامية . وقد استفاد الطلبة من السفر وزيارة البلاد المختلفة ، والاتصال بالأئمة والعلماء والأدباء والفضلاء ـ كثيرا من التجارب العملية المفيدة ، والآراء العلمية الثمينة .

(٣) حرية الطلاب والأساتذة :

لم يكن فى المعاهد الاسلامية فصول لكل فرقة من الفرق الدراسية، ولا نقل من فرقة الى أخرى أو من صف الى صف . وكان الطلاب أحرارا فى حضور دروسهم ، واختيار أساتذتهم . وكان الأساتذة أحراراً فى تحديد عدد المحاضرات التى يلقونها كل أسبوع ، واختيار الأوقات التى يريدونها ، بعد صلاة الفجر ، أو عند شروق الشمس ، أو بعد صلاة الظهر ، أو بعد صلاة العصر ، أو بين المغرب والعشاء ، وكان بعضهم يلقى محاضرة كل يوم ، وبعضهم يلقى محاضرة كل أسبوع . وحينما تبدأ الصلاة تتوقف المحاضرات ، حتى ينتهى المصلون من الطلاب والأساتذة من صلاتهم ، وبعد الانتهاء من الصلاة تبدأ المحاضرات فى حلقات . ولكل حلقة أستاذ خاص يقوم بالتدريس للطلبة الذين يحضرون فيها .

(٤) تنوع أساليب التدريس وطرقه فى المعاهد العالية :

كانت أساليب التدريس فى المعاهد العالية الاسلامية متنوعة ،

(١) ارجع الى جامع بيان العلم وفضله للنمرى القرطبى ، حـ ١ ص ٩٤ .

وطرقه متعددة ، ولم يقتصر الأساتذة على طريقة خاصة في تدريسهم • فأحيانا كان العالم من العلماء يملي درسه على الطلبة من ذاكرته ، وليس في يديه مذكرات أو كتب يملي منها ، وهذا يدل على تمكنه من مادته ، واذا كان عددهم كبيرا اختار واحدا أو اثنين من المعيدين لاعادة ما أملاه عليهم ، كي لا يفوتهم شيء مما يقوله •

قال أبو العباس ثعلب عن ابن الاعرابي اللغوي المعروف بالكوفة : « شاهدت مجلس ابن الاعرابي ، وكان يحضره زهاء مائة انسان • ولقد أملى على الناس ما يحمل على أجمال ، ولم يكن بيده كتاب (١) » وهذا يدل على غزارة مادته ، وسعة اطلاعه ، وثقته بنفسه •

نظام (المعيدين) نظام أبتكره المسلمون

وقد قيل ان السديد محمد بن هبة الله كان اماما في عصره ، وتولى الاعادة (أي كان معيدا) بالمدرسة النظامية ببغداد ، وأن الشيخ أبا اسحق الشيرازي الفيروزابادي قد صحب القاضي الطبري ، وكان ينوب عن الطبري في مجلسه وتدريسه ، ورتبه معيدا في حلقته •

وأحيانا كان الطالب يقرأ قطعة صغيرة من الكتاب الذي يدرسه الأستاذ للطلبة ، لتكون مقدمة لدرسه ، ثم يبدأ الأستاذ بشرح معنى تلك القطعة وتوضيحها ، والتعليق عليها ، حتى يفهم الطلبة المقصود منها • ويتبع المدرس في طريقته الخطوات الآتية :

(أولا) : يبدأ بقراءة النص وشرحه •

(ثانيا) : يأتي المدرس بالآراء المختلفة في الموضوع ، ويوضحها •

(١) ارجع الى كتاب وفيات الاعيان لابن خلكان - ج ١ ص ٦٣٢ •

(ثالثا) : يدلى برأيه الخاص فى الموضوع ، ويؤيده بالدليل .

(رابعا) : يوازن بين موضوع البحث ، والموضوعات المشابهة له .

(خامسا) : يعطى الطلبة الفرصة فى أن يسألوا ما يشاءون من الأسئلة ، ويجيب عليها ، ولا يترك درسا حتى يفهمه الطلبة كل الفهم .

وكان المعلمون من المسلمين يلقون دروسهم بهدوء ، ويعملون بكل اخلاص ، ويتحلون بالآداب العالية ، والاخلاق الكريمة ، لايحقدون على غيرهم ، ولا يظلمون سواهم ، ولا يفكرون فى النواحى المادية الخاصة بالدرجات والعلاوات والترقيات، لأنهم زاهدون قانعون بالضروريات للمحافظة على الحياة .

(٥) طريقة المحاضرات :

وكان المحاضر يعد محاضرته ، ويدونها نقطة نقطة ، ثم يتكلم عن كل نقطة كلام أستاذ متمكن من مادته ، فيدون الطلبة ما يفهمونه من الآراء فى مذكراتهم الخاصة . ولم يكن المحاضرون ممن يحفظون محاضراتهم ويقولون مالا يفهمون ، بل كانوا يفهمون كل فكرة يذكرونها ويشرحونها بوضوح . ولم يكونوا ممن يعتمدون على ما فى أيديهم من مذكرات ، فاذا أخذت هذه المذكرات منهم ، وقفوا حيارى لا يستطيعون أن يذكروا شيئا لطلابهم . فقد كانوا علماء حقا ، واسعى الاطلاع ، لا يحتاجون الى النظر فى كتب أو مذكرات ، فى أثناء المحاضرات .

وقد شرح ابن خلدون طريقة المحاضرات فى مقدمته ، ونقد اعتماد الطلاب على المتون والمختصرات فى العلوم ، وشجع الاسهاب

والسهولة فى الموضوعات ، ثم ذكر آراء ثمينة ، لا تختلف عن الآراء فى التربية الحديثة اليوم ، نلخصها فيما يلى :

لكى ينتفع الطالب بالمعلومات يجب ألا يتلقاها مرة واحـــــــدة ، بل يتدرج معه فيها ، ويأخذها شيئا فشيئا ، وينبغى أن يبدأ المحاضر درسه باعطاء فكرة عامة مجملة عن الموضوع يلخص فيها أصول الباب ، وهى النقط الرئيسية فى محاضرته ، مع تجنب التفاصيل المعقدة ــ التى يصعب على الطلاب فهمها ــ فى بدء الدرس · « ويراعى فى ذلك قوى عقله (عقل الطالب) واستعداده لقبول ما يرد عليه » ثم يعود ثانية الى الموضوع فيرفعه فى التلقين عن تلك المرتبة الى مرتبة أعلى منها ، يستوفى فيها الشرح والبيان · وينتقل من الاجمال الى التفصيل ، ويذكر للطالب نواحى الخلاف فى الموضوع ، وأوجه النظر ويعيد الدرس مرة ثالثة يعالج فيها الموضوع بطريقة أكثر عمقا ، فلا يترك عويصا ولا مهما ولا صعبا الا وضحه ، وفتح له مغلقه (١)

فابن خلدون ينادى بالتدرج فى اعطاء المادة ، حتى يفهم الطلبـــة الدرس ، ويتضح فى نفوسهم ، ويتفق مع نظرية (الجشتالت) فى علم النفس ، فى اعطاء المتعلم فكرة عامة اجمالية عن الموضوع ، ثم الانتقال الى تفصيل كل نقطة من الدرس بعد الاجمــــال ، ويراعى استعداد الطالب من الناحية العقلية ، فالذكى يفهم المحاضرة بمجرد استماعها للمرة الاولى ، ومن كان فوق المتوسط فى الذكاء يفهمها بعد استماعها مرتين ، والمتوسط يدركها بعد الاصغاء اليها ثلاث مرات ، وينادى بذكر النقط الهامة فى البـــدء ، ثم شرحها بالتدريج ، ثم

(١) مقدمة ابن خلدون بتصرف ص ٤٨٩ ·

معالجتها بتعمق فى المرة الثالثة بحيث يفهم كل طالب الدرس فى النهاية فهما جيدا ٠

والعبدرى يطالب بفهم الموضوع ، ودراسة الآراء المختلفة فيه ، واختيار الرأى الصحيح ، والموازنة بينه وبين غيره ٠ ومن هذا كله ترى أن طرق التدريس فى التربية الاسلامية منطقية معقولة ، ولا تختلف عن الطرق الحديثة فى التربية ٠

(٦) طريقة المناظرة :

كانت المناظرة من مميزات طرق التربية الاسلامية ، ولا ينكر أحد أثرها فى شحذ الذهن ، وتقوية الحجة ، والتمرن على سرعة التعبير ، والفوق على الأقران ، وتعويد المتناظرين الثقة بالنفس ، والقدرة على الارتجال ٠ ولهذه الاسباب عنى بها المسلمون عناية كبيرة ، وعدوها طريقة من طرق التعليم ، وأشاروا اليها فى كتبهم الادبية ٠ فقد تناظر الامام الغزالى مع مشهورى العلماء ، وقادة الفكر فى معسكر الوزير نظام الملك ، وانتصر عليهم جميعا ٠ وقال السبكى (١) يصف اسماعيل بن يحيى بأنه جبل من العلم ، على جانب عظيم من المهارة فى المناظرة ٠ وقال عنه الامام الشافعى رضى الله عنه : « لو ناظر الشيطان لغلبه » ٠

وكان العلماء يشجعون طلبتهم على المناقشة والمناظرة ، ويوجبون عليهم التمرن عليها ٠

وكان الطالب يخالف أستاذه فى الرأى احيانا مع مراعاة التأدب والاحترام ٠

(١) فى كتاب طبقات الشافعية الكبرى حـ ١ ص ٢٣٨ ٠

وقد نقد ابن خلدون الركود الذهنى فى بلاد المغرب فى القرن الرابع عشر الميلادى وعزاه لرداءة الطرق فى التدريس لأنها أهملت المناقشة والمناظرة فى طريقة التعليم ، حيث قال : « وأيسر طرق هذه الملكة فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة فى المسائل العلمية ، فهو الذى يقرب شأنها ، ويحصل مرامها . فنجد طلاب العلم منهم بعد ذهاب الكثير من أعمارهم فى ملازمة المجالس العلمية ــ سكوتا لا ينطقون ولا يفاوضون . وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة ، فلا يحصلون على طائل من ملكة التصرف فى العلم والتعليم » .

فابن خلدون يرى أن المناظرة فى المسائل العلمية تساعد على فهمها، وقدرة التعبير عنها ، وينتقد سكوت الطلبة ، وعدم تكلمهم فيما عرفوا من العلوم ، كما يأخذ عليهم العناية بالحفظ أكثر مما تقتضيه الحاجة .

قال الشاعر :

العلم بالفهم وبالمذاكرة والدرس والفكرة والمناظرة

ويرى الزرنوجى أن قضاء ساعة واحدة فى المناقشة والمناظرة أجدى على المتعلم من مكث شهر كامل فى الحفظ والتكرار .

وقد كان للعناية بالمناقشة والمناظرة والحوار بالأسئلة والأجوبة أثر حيوى كبير فى طالب العلم ، جعله يشترك فى أن يعلم نفسه بنفسه ، ويعتاد حسن التفكير ، وجودة التعبير ، والقدرة على النقد ، والقوة فى الاقناع ، والاعتماد على النفس ، وحرية الفكر .

والحق أن علماء الاسلام كانوا مولعين كل الولع بالمناظرة ، حتى جعلوها من أنواع التسلية ، والترويح عن النفس ، والمتعة الأدبية ،

وان الميل الى العلنية والجهر بالرأى في التربية الاسلامية قد شجع الطلاب والعلماء على المهارة فى الخطابة ، والقدرة على الارتجال ، والتعبير عن الأفكار • والخطابة الارتجالية تراث عربى خالد ، افتخر به المسلمون فى جميع الأجيال • **وبالخطابة والمناظرة استغنوا عن كتابة المقالات والرسائل فى كثير من الأحيان •**

(٧) الطريقة التى كان الطالب يتبعها فى التعلم فردية :

(ا) كان نظام التعليم فرديا فى التربية الاسلامية : فالطالب كان يتمتع بقسط كبير من الحرية ، يختار من المواد الدراسية ما يناسب ميوله الفطرية ، واستعداده العقلى ، ويختار العالم الذى يتلقى عنه العلم ، ويحضر ما يلقيه أستاذه من المحاضرات ويقرأ المادة ويدرسها ، ويعدها قبل الدرس حتى يفهمها ويسأل أستاذه فيما صعب عليه منها ، وهو حر غير مقيد بنظام معين ، ولا بجدول أوقات دروس ، وليس مطالبا بامتحانات خاصة للنقل من صف الى آخر ، أو من فرقة الى أخرى •

(ب) التعلم بالحفظ والاستظهار :

كان التعلم بالحفظ والاستظهار طريقة مألوفة فى الأمم القديمة والحديثة • وكان علماء الاسلام يعنون بحفظ القرآن الكريم والأحاديث الشريفة عناية كبيرة ؛ فقد ذكر ابن خلكان فى كتابه وفيات الأعيان أن ابن حنبل حفظ عن ظهر قلب ألف ألف حديث ، فى حين أن البخارى قد حفظ وهو صبى مايقرب من خمسة عشر ألف حديث • وذكر ابن عساكر عن داود الخفاف أنه قال : « أملى علينا ابن راهويه أحد عشر ألف حديث من الذاكرة ، ثم أعادها دون أن

ينقص أو يزيد حرفا واحدا • » وهذا دليل على قوة ذاكرته • وقال الخليل ابن أحمد : « ماسمعت شيئا الا كتبته ، ولا كتبته الا حفظته، وما حفظته الا نفعنى » فلحرص العلماء كانوا يكتبون كل مايسمعون، ويحفظون مايكتبون ، وينتفعون بما يحفظون ، ولا يمكنهم الانتفاع بما حفظوه الا اذا فهموه جيدا •

وقال موفق الدين البغدادى : « واذا قرأت كتابا فاحرص كل الحرص على أن تستظهره وتملك معناه ، وتوهم أن الكتاب قد عدم ، وأنك مستغن عنه ، لا تحزن لفقده » وهذا يدل على أن الطلاب كانوا يعنون بالفهم عنايتهم بالحفظ ، وكانوا يحفظون الكتاب ، بحيث اذا ضاع أو فقد استغنوا عنه ، ولم يحزنوا لضياعه أو فقده •

وفى الأدب العربى أمثلة كثيرة لمن كانوا يحفظون القصيدة الطويلة بعد أن يسمعوها من قائلها مرة واحدة ، لما أوتوا من قوة كبيرة فى التذكر •

وقد عزا بعض فلاسفة الاسلام القدرة على التذكر الى عوامل نفسية ومادية ؛ كالاستمرار فى المذاكرة ، والاعادة والمراجعة ، وبذل الجهد فى الدرس ، والبعد عن المشاغل والآلام، والتفرغ للعمل والدراسة، فى جو من الهدوء والايمان • واننا نتفق معهم فى كل ماأبدوه من الأسباب •

وان من يفحص عن الأمر يجد أن العناية بالذاكرة كانت أثرا من آثار التقاليد فى بدء الاسلام • ففى الوقت الذى ظهر فيه الاسلام كان معظم العرب أميين لايقرأون ولا يكتبون ، فاعتمدوا على ذاكرتهم كل الاعتماد فى تذكر الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ،

والتعليمات الدينيــــة ، والقواعد الاسلامية ، والأشعار والقصص العربية ·

ومع عناية علماء الاسلام بالحفظ والذاكرة لم يهملوا مطلقا العناية بالتفكير فيما يحفظ ، وشرحه وتحليله ، وفهمه حق الفهم ، فقـــد جعلوا الحفظ وسيلة لا غاية ، لقلة من يجيد القراءة والكتابة فى بدء الاسلام · وقد نادى الحاج خليفة فى كتاب : « كشف الظنـــون بأهمية الفهم والاستنباط والانتقال من المنطوق الى المفهوم والمدلول ·

قال موفق الدين البغدادى : « ولا تظن انك اذا حصلت عــلى علم فقد اكتفيت ، بل تحتـــاج الى مراعاته لينمى ولا ينقص ، ومراعاته تكون بالمذاكرة والتفكـــر ، واشتغال المبتـــدىء بالحفظ والتعلم ، ومباحثة الأقران واشتغال العالم بالتصنيف » ·

فالبغدادى ينصح المتعلم بالمــذاكرة والتفكير ، والحفظ والتعلم ومناقشة الزملاء ، للمحافظة على ما تعلمه وتنميته ، كما ينصـــح العالم بالتصنيف أو التأليف ، ليزداد فى بحثـــه وعلمه ، وتثبت المعلومات فى ذهنه ·

وقال الشيخ برهان الاسلام ناصحا المتعلم : « ألا يكتب شـــيئا لا يفهمه ، لان ذلك يورث كلال الطبع ، ويذهب الفطنة ، وينبغى له ان يجتهد فى الفهم من الأستاذ ، ويكثر من التأمل والتفكير » ·

فهل بعد هذا يستطيـــع مدع أن يدعى أن المسلمين كانوا يعنون بحفظ المادة ، ويهملون فهمها ؟ الحق أن طريقة التعليم فى التربية الاسلامية عنيت بفهم المادة عنايتها بالحفظ ، ولم تهمل الفهم والتأمل

والتفكير فيها مطلقا ، فالطلبة كانوا يكثرون مناقشة أساتذتهم ، وكانت الأسئلة تنهال عليهم من كل صوب بعد الانتهاء من المحاضرة . وكان العلماء لايتركون نقطة الا بعد فهمها جيدا . وحرية السؤال كانت مكفولة للجميع . وكان للطالب الحرية المطلقة في أن يبدى رأيه ، وقد يختلف مع أستاذه في الرأى أو الفكرة ، فقد قيل ان ابن العباس خالف أساتذته في الرأى ، وهم عمر وعلى وزيد بن ثابت وهم من المسلمين المشهورين ، كما اختلف الامام مالك مع معظم أساتذته في بعض الآراء ، ثم خالفه في الرأى كثير من تلاميذه (١) .

٨ ـ الامتحانات :

في التربية الاسلامية لم يطلب من المتعلمين تأدية امتحان بعد الانتهاء من الدراسة ، كالامتحانات التي تعقد في عصرنا هذا . وقد ذكر ابن أبي أصيبعة (٢) حالة واحدة ، جاء فيها أنه عقد امتحان لاطباء بغداد في عهد الخليفة المقتدر (في القرن العاشر الميلادى) بحضرة سنان بن ثابت الذى كان يمتحن الأطباء امتحانا شفهيا .

وبدلا من الامتحان كان الاساتذة يعطون طلبتهم الاكفاء شهادة أو اجازة ينصون فيها على أن الطالب أتم دراسة منهج معين ، تحت اشراف الاستاذ فلان ، دون أن يؤدى الطالب امتحانا . والغرض من الاجازة الاقرار بكفاية الطالب واجتهاده ، وانكبابه على العلم ، وتفرغه للدراسة والبحث . وكانت الاجازة العلمية شهادة شخصية من الاستاذ لتلميذه ، ليس فيها عنوان معهد معين ، ولا يذكر فيها لقب علمى .

(١) ارجع الى كتاب الاسلام والحضارة العربية لكرد على جـ٢ ص ٨
(٢) في كتاب طبقات الأطباء .

خاتمة

اذا نظرنا الى ما بذله أسلافنـــا من المسلمين القدماء الأغنياء فى سبيل التربية والتعليم ، وما وقفوه من الأموال والعقار على المعاهد الاسلامية وجدنا ماضيهم رائعا جليلا نستطيع ان نفخـــر به • واذا وازنا بين ما قمنـــا به نحن المسلمين فى النصف الأول من القـــرن العشرين ، وما قام به المحسنون فى الماضى من جهـــة أداء الواجب فى نشر التعليـــــم حكمنا على أنفسنا بالتقصير فى أداء ذلـــك الواجب الدينى ، واعترفنا باننا فى حاجة الى ايمان كايمانهم ، وعقيـــــدة كعقيدتهم فى أن العلم مقدس ، وطلبه عبادة ، وفى حاجة الى ســـخاء كسخائهم ، وكرم ككرمهم فى انشاء المعاهد الاسلامية •

لقد اعتمد الاثرياء من المسلمين على أنفسهم فى تيسير ســـــبل التعلم للراغبين فى العلم ، ولم يعتمدوا على دولهم وحكـــوماتهم فى القيام بكل صغيرة وكبيرة ، وضحوا بكثير من ثرواتهم ، وبذلوا كثيرا من أموالهم فى سبيل تشجيع التعليم ونشره ، أنشأوا دور العلم ، ودور الكتب ، لتشجيع الطلاب على الدرس والبحث •

ولا يمكننا أن ننسى ان احتلال البلاد الاسلامية فى المـــاضى كان سببا فى انتشار الامية والجهل والتخلف ، فمن المبادىء الاستعمارية الانجليزية المعروفة : « **ان الثمرة اذا نضجت انفصلت عن شجرتها**

فالبرتقالة أو التفاحة اذا تم نضجها انفصلت عن شجرة البرتقال أو التفاح • ولا ينضج الشعوب الا نشر العلم والتعليم • فاذا تعلمت الشعوب التى يحتلها المستعمرون نضجت وكملت ، وانفصلت عن شجرتها ، وهى الامبراطورية الانجليزية ، لهذا حورب نشر التعليم فى مصر فى عهد الاحتلال البريطانى ، ولولا ما قامت به الجمعية الخيرية الاسلامية فى القاهرة وغيرها من المدن المصرية ، وما قامت به جمعية العروة الوثقى بالاسكندرية ، وجمعية المساعى المشكورة بشبين الكوم — من انشاء المدارس المختلفة لكانت نسبة التعليم فى الاقليم المصرى اليوم ضئيلة جدا ، ولكن انشاء هذه الجمعيات ساعد فى نشر التعليم بعض الشيء •

ونرجو أن يأتى اليوم الذى نحتفل به قريبا بنشر التعليم فى جميع البلاد الاسلامية ، والقضاء على الأمية ، ويسمع العالم كله أن نسبة التعليم ارتفعت الى ١٠٠٪ ، فى ذلك العهد السعيد ، وما ذلك على الله ببعيد •